

محمود تيمور

نداء المجهول

مسئرة الطبع والنشر
مكتبة الأديب وطباعة الفصحى مسيرت ٩١١٣٧٢
المطبعة النموذجية
٦ مكتبة الشاذلي في دار الشاذلي بجزيرة



محمود تيمور

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف:	٥٩٩ ٢٢٦
رقم التسجيل:	١٩٨٦٢

نداء المجهول

مستلزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالاسكندرية ٩١٦٣٧٧

المطبعة النموذجية
٦ مكتبة الشارعية بالجامعة اللبنانية

قصدير

محمود تيمور

[قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية تنويع جميع
الانتاج القصصى باللغة الفصحى لمحمود تيمور بك ،
ومنحه جائزة القصة لسنة ١٩٤٧]

وقد أعلن المجمع قراره هذا فى حفل أقامه
يوم ٥ ابريل سنة ١٩٤٧ بدار الجمعية الجغرافية .

وكان المقرر هو حضرة صاحب العزة الأستاذ
محمد فريد أبو حديد بك عضو المجمع وعبد معبد
للتربية للعلمين ، فألقى بحثا جاء فيه ما يأتى [

... اختار المجمع اللغوى فى هذا العام من بين المبرزين فى
القصة الأستاذ الكبير محمود بك تيمور ، فأهداه جائزة القصة
إشارة منه إلى هذا المعنى ، ثم اعترافا بالأستاذ الكبير من أثر
محمود فى فن القصة فى أدبنا الحديث .

فقد ألف الأستاذ محمود تيمور بك نحو خمسة وعشرين كتابا
فى القصص ، بعضها مجموعات من قصص قصيرة ، ويبلغ عددها
ثلاث عشرة مجموعة ، وبعضها من قصص تمثيلية ويبلغ عددها عشرة ،
ومعها فوق ذلك قصتان طويلتان لم تظهر سوى إحداهما ، وهى

« كليبوتر في خان الخليلي ، فأكثر جهود الأستاذ تيمور بك متجهة
كما يظهر إلى نوعين من القصة : التمثيلية ، والقصة القصيرة .

وقد كانت القصة التمثيلية عنده أسلوباً في الكتابة لا يقصد بها
الاتجاه إلى التمثيل على المسارح ، فتمثيلات « تيمور » أقرب إلى
أن تكون نوعاً آخر من القصة القصيرة .

والفرق بين النوعين أن التمثيلية تعتمد في تصوير الأشخاص
على محاورات أحاديثهم وحركاتهم ، على حين أن القصة تعتمد على
الأكثر في تصوير الأشخاص على وصف هيئاتهم ووصف مواقفهم
وما يبدو من أعمالهم .

ولم يخرج من تمثيلات « تيمور » على المسرح إلا عدد محدود ،
وكان آخرها تمثيلية « حواء الخالدة » التي كان لها أكبر حظ من
التوفيق . ولسنا هنا في سبيل التعرض لطريقة « تيمور بك » في فنّه ،
ولا للتحدث تفصيلاً عن مذهبه في القصة . وحسبنا أن نشير إلى
أنه في كل آثاره يتجه نحو إبراز الفكرة الواحدة يعرضها في إطار
محدود ، ومن ثم يمكن أن نقول : إن فن القصة القصيرة وما يتصل
بها من المسرحيات القصيرة هو الجانب الذي خص به فنّه إلى الآن .
فهو في أدبنا الحديث يشبه « تشيكوف » و « مكسيم جوركي » في
غلاب الروسي ، و « موباسان » في الأدب الفرنسي .

ولعل هذا الشبه لم يكن عفواً ، فقد كتب الأستاذ « تيمور » في مقدمته بمجموعته القصصية « فرعون الصغير » متحدثاً عن « موباسان » قال : « وتابعت قراءتي إياه في شغف عظيم ، واتسعت مطالعاتي فيما بعد في القصص الأوربي وتشعبت ، ولكنني حتى اليوم ما زلت محتفظاً لموباسان بالمكان الأول من نفسي » . . .

ثم قال : « وانتقلت بعد ذلك إلى القصص الروسي ، وقرأت « لتشيكوف » و « ثور جنيف » ومن مائلهما ، فرأيت تأثير « موباسان » واضحاً في بعض إنتاجهم » .

ولا يملك المتابع لآثار « تيمور » إلا أن يرى الفرق واضحاً بين آثاره الأولى وآثاره الأخيرة .

ولعل مجموعة قصصه « فرعون الصغير » هي التي تمثل لنا روح فنه في العصر الأول ، وهو يسير فيها — على عادته — يرسم الأشخاص في براعة حتى يكاد القارىء يلمح فيهم بعض من عرف من جيرانه ، ولكن حماسة الشباب تبدو واضحة في أسلوبه : ففيه يعلو صوته وتشتد حركته حتى لقد تبلغ ما يشبه العنف ، ثم هو يعمد أحياناً إلى شيء من المفاجأة ، وقد يظهر ما ينم عن الخلق أو الأحكام الخلقية

ولكن آثاره الأخيرة تتم عن تغير محسوس في أسلوب التعبير ، فهو يرسم الأشخاص كما اعتاد أن يرسمهم في براعة ، ولكنه يتحدث

هادثاً مترقفاً منخفض الصوت رقيق الحركة ، تحس في كل عباراته
أن قلبه مملوء عطفاً على الإنسان .

وإنا نستطيع أن نقول في ثقة إنه قد بلغ في بعض قصصه
الآخيرة مرتبة عالية حق لنا أن نفاخر بها . فهو في قصته « ولى الله »
من مجموعة « شفاه غليظة » يصور أسمى جانب من القلب الإنساني .
عندما يصور لنا أن هناك ما هو أعلى من عدالة القوانين . وفي قصة
« كلب أسعد بك » يرسم لنا في وداعة صورة اجتماع السمو والإسفاف ،
في الحطام البشري وفي قصة « البديل » يصور لنا كيف تنطوى
أسمى العواطف في قلب الإنسان وإن كان في عرف المجتمع الجامد
موضعا للزراية . ففي مثل هذه القصص يظهر فن « تيمور » رانعا
إذا قيس بأعلى آثار القصص في الأدب العالمي .

وإذا كان الأستاذ « تيمور بك » قد اتجه في بعض قصصه نحو
مجاراته الكتابة باللغة الدارجة ، فالظاهر أنه قد وجد اللغة العربية
الصحيحة أولى بفنه ، فنجا أخيراً في أسلوبه منحى يجمع الصحة
والسلامة والسهولة . ولعل هذا اعتراف منه بما تنتظر اللغة العربية
من فنه .

فإذا أردنا أن نجمل ما تمتاز به طريقة الأستاذ « تيمور بك »
في قصصه ، كان لنا أن نقول على طريقة القدماء في وصف
الأدباء :

إنه يمتاز بثلاث :

أنة يرسم الأشخاص حتى إنك لتحس أنفاسهم وتلمح الحياة في سهولة حركاتهم .

وأنه يكتب في لغة سلسلة لا تحجب شيئاً من معانيه .

وأن فنه يشيع فيه روح وديع من الإنسانية لاتحس معه حرارة في وصف ، حتى ليكاد يجبب إليك الضعف الإنساني .

إن « تيمور » إذ يتحدث عن الناس في ضعفهم يتحدث عاطفاً كأنما هو يحبهم لما فيهم من العيوب ، ويصور سمومهم معجبا بغير أن يجعل الإعجاب يخدعه عن الحب .

ولهذا نعتقد أنه أروع ما يكون وأحلى إذا تحدث عن الناس كما يراهم في لحات قصيرة كأنه عابر طريق .

وهو في ذلك يخدم الأدب من ناحيتين :

الأولى : أنه يشير إلى مثله الأعلى الإنساني ، ويصوره لنا في صوره البارعة .

والثانية : أنه يعرفنا بالجانب الذي يعرفه من مجتمعنا المصري ، فهو معلم من معلمى هذا الجيل ، وهو عامل من العوامل القوية على تعريفنا بأنفسنا .

وإذا كان القصص الرمزي والأسطوري فنه وفنانوه ، وإذا كان القصص الطويل فنه وفنانوه ، وإذا كان للنتمة الثائر فنه وفنانوه ؛

فإن فن « تيمور » هو القصصى القصير الواقعى الإنسانى المماوء
محبة للإنسان .

ولأنه ليشرفنى أن أنوب عن المجمع اللغوى فى توجيه الشناء إليه ،
راجياً له أطراد التوفيق والسمو ، سائل الله أن يمدّه بروح من عنده ،
حتى تتكون العربية الشريفة ثروة من ثمار إنتاجه وإنتاج أنداده
من المبرزين فى فن القصة الذين تعز بهم العروبة ؟

محمد فريد أبو صبر

سافرتُ إلى «لُبنان» ، سنة ١٩٠٨ ، لأروِّحَ عن نفسى ،
 وَأَنعمَ بفترة هدوء وُبُعد عن صَحَب الحياة ، و «لبنان» وقتئذٍ
 تحت السيادة التركية . وقصدت إلى «بعتاب»^(١) وهى قرية صغيرة
 لا تحوى سوى ثلاثة منازل ، وفندق متواضع لا يسع أكثرَ من
 ثمانية أشخاص . وكانت المنطَقةُ فى مَعزِل ناء ، فأقرب بلدة
 إليها تبعد منها مَسِيرَ ساعتين على البغال .

استقرتُ فى المقام فى «فندق الأمان» ، لصاحبه «الشيخ عاد
 أبو المجد» ، ووجدت المكانَ وَفوقَ هواى : هدوء شامل ،
 وهواء جافٍّ بارد يبعث فى الجسم النشاط ، ومعيشة ساذجة
 قريبة إلى الفطرة . فالفندق أشبه بمنزل ريفيٍّ ، غرس أمامه
 « الشيخ عاد » بعضاً من أشجار الصَّنَوْبَر والتفاح والعنب ،
 وأصنافاً من الأزهار ، بطريقة غير منسقة ، ولكنها مقبولة .

(١) الأسماء الواردة فى هذه الرواية مصنوعة .

وكانت الجبال الشاخنة تحيط بتلك البقعة الواودة ، كأنها
حرّاس يخفرونها . والوادي البعيد منبسط أمام الفندق بزروعه
المختلفة الألوان . وعلى سفح الجبل قُطعانُ الماشية ترعى الحشائش
الجافة التي تنبت في جُرأة عجيبة بين الصخور .

وكنا نُسبح لأنفسنا الظهورَ في الفندق ، وعلى المائدة نفسها ،
بالملابس التي تروقنا . فيرتدى كلُّ واحد منا ملابس الوطنيه المريحة ،
وقد شجعنا على ذلك « الشيخ عاد » نفسه ، إذْ تعود أن يظهر أماننا
بملابسه الشرقية البديعة : القفاطين الوطنيه ذات الألوان الزاهية ،
والجُبَّس الحريرية الفضفاضة الموشَّية بالقَصَب ، يغدو فيها
ويَرُوح بِمِشِيته المتزنة الهادئة . ووجهه الصَّيِّح مشرقٌ دائمٌ
الابتسام ، فتخاله سلطاناً من سلاطين ألف ليلة . . .

والرجل حُلُو الحديث ، غاية في السباحة وكرم الضيافة . وقد
تغجَّب لتلك القيمة الزهيدة التي يرضى بها أجراً للبيت والطعام ،
مع أنه يقدم لك من المآكل ما يساوى أضعافها . ولكنك إذا
علمت أنه يملك قُطعاناً من الغنم ، وأرضاً شاسعة للزراعة ،
وبساتين مزدهجة بالسكرور وشتلف الناكهة ، زال عجبك ،
وأيقنت أن كرم الرجل سجيّة فيه متأصلة ، ساعده هايتها

غناه . وما إدارة الفندق في الحق إلا هوى نفسى لا يخلو
من شذوذ .

واعتدنا نحن سكان الفندق ، أن نجتمع وهو معنا على
مائدة واحدة ، والمائدة مستديرة تضم على سطحها العريض ما لذ
وطاب من ألوان المشهيات التي اشتهرت بها الموائد اللبانية .
فإذا جاء الخدم بصنف من الطعام ، وضعوه وسط المائدة ،
وقولى الشيخ توزيعه علينا . وكثيراً ما استغينا عن الملاحق ،
فاستبدلنا بها أصابعنا ، نترك لها حرية العمل ، كما كان يفعل آباؤنا
وأجدادنا منذ القدم . وكان سداجة الحياة التي تحيط بنا ، أوحى
إلينا ذلك ، فجعلنا نرى بتلك القيود البغيضة التي فرضتها علينا
مدينتنا الحاضرة . وفي أثناء الطعام ، يسامرنا « الشيخ عاد »
بحديثه الطلي ، ويقص علينا قصصه الطريفة في لمحة عذبة
مشبعة بحنان الأبوة . أما نحن فكنا نصغى عمليين في وجهه ،
يغمرنا سحر عجيب ، فكأننا انقلبنا أطفالاً صغاراً يُنصتون
إلى ما يُروى لهم من بدائع الأساطير !

ومن غريب ما علمته من شأن « الشيخ عاد » أنه على علم
بوسائل التطبيب ، يارسها على طريقته الخاصة ، باستخدام

الأعشاب وبعض العقاقير الحديثة . وقد شهدتُ بعضَ المرضى
الفقراء من أهل النواحي القريبة ، يَقدُمُون إليه ، يستشفُّونَ
على يديه . فإِردُّ أحدَهم ، بل يزودهم فوق حصه عن عَلتهم
بِالدواء من صيدليَّتهِ المنزلية .

وكنا في ذلك الوقت ستةَ أشخاص ، غير « الشيخ عاد »
وخدم الفندق . ومن الطريف أن تضمَّ أسرُتنا هذه سيدةً
إنجليزية ، قيل : إنها مستشفقة ، وقيل : إنها متخصصة في العلوم
الطبيعية ، جاءت « لبنان » تدرُس طبيعة أرضه ، ونباته
وحيوانه . . . هي في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، هادئةُ
القسيمات ، ما تزال نَضْرَةُ الشباب تتخيل على وجهها الجميل .
وَأُفِيَتْ مرةً ، في الحديقة ، « حبيب » الخادم ، طروباً
في وقْفَتِهِ ، يَرُشُّ الزرع ويغنى . فقلت له وأنا أداعب
سُبحَتِي وأبتسم :

« ما رأيك في صاحبك الإنجليزية ؟ »

فحدق في لحظةً ، ثم اندفع يقهقه . وأخيراً قال لي :

« ما لك وما لها ؟ اترُكها وشأنها ، وإلا فالعاقبة وخيمة ! »

ثم التفت حوله في حَذَر ، ودنا مني ، وهمس في أذني :

« ألسن ترهبُ الجواسيس ؟ »

فدهشت ، وتركت حبيب ، وقد اشتدّ اهتمامى بهذه السيدة ..
 وكان قد مضى على بضعة أيام فى الفندق ، تعرفتُ فى أثناءها
 بجميع النُزلاء ، إلا أنى لم أهتم بغير هذه الإنجليزية ورجل
 سورى مترهل الجسم ، له رقبة مجمّدة ناحلة كرقبة النُسر
 المحرم ، اسمه كنعان ، يدّعى أنه أستاذ للتاريخ فى دار الفنون
 ، « أستانبول » . . . أراه دائماً فى الحديقة ، حيث يفترش العُشب
 الأخضر ، ويتوسّد حُزْمة من الهشيم ، ويمضى يدخن « النارجيلة »
 فى اطمئنان . وكثيراً ما تفاضيتُ عن مبالغاته وأكاذيبه يُنمق
 سردها تنميماً يُكسبها مظهر الحقيقة .

أما السيدة الإنجليزية « مس إيفانس » ، فقليلة الكلام ، مُحبة
 للجزلة ، لا تبادلُنا فى فترة الأكل إلا بضع كلمات بلغة بين
 الفصحى والعامية ، تنطقها فى شيء من الصعوبة . ولكنها
 تُنصتُ لحديثنا أىّ إنصات ، ولا سيما إذا تحدث « الشيخ عاد » ،
 فأيقنتُ أنها تفهم العربية جيداً ، بيد أنها لا تحسن التلفُّظ
 بها فى يسر .

ولاحظت أنها تخرج من الفندق كثيراً ، وتتغيّب طويلاً
 وربما قضت النهار كله فى الخارج ، لا تعود إلا بعد مغرب الشمس
 فسألت « الشيخ عاد » :

« أين تكون هذه السيدة حين تغيب ؟ »

فقال لي وهو يبتسم ابتسامته الهادئة :

« ربما كانت تدرّس طبيعة الجبال ! »

وكانت إذا آثرتِ المُسْكَنَ في الفندق ، جلستُ على
«مقعد مُرَّيح في طرف الحديقة البعيد ، وفي يدها كتاب تطالع فيه .
وكثيراً ما رأيْتُها تقضى الساعاتِ الطوالَ على مقعدها ،
تنطوي نظراتها على عزم ونشاط وإرادة ، تخالطها وداعة مُحِبَّة .
والكتاب ملقَى بجوارها لا تنظر فيه ، وهي تحديق بعينها الزرقاوين
الحالمتين في الوادي البعيد الممتدّ تحت قدميها ، أو في الجبال
الشاخنة المحيطة بها ، وقد أشرق وجهها بنور عجيب ، وراحة
نفسية شاملة .

ومرّة كنتُ أُنزّه في الحديقة ، تحت ظلال الصنوبر ،
خرأيت « مس إيقانس » قاصدة إلى ركنها البعيد ، متأبطة بضغ
صحف ، وورقة كبيرة مُبَطَّنة بالنسيج ، ملفوفة على شكل
الأسطوانة ، فما شككتُ أنها « خريطة ، من « الخرائط » .
فوجعلتُ تجذب إليها مقعدها الطويل ، فرأيت نفسي قد اندفعت

— ١٥ —

نحوها . . . ولما دنوت منها سلت عليها منحنياً ، وقلت لها
الإنجليزية :

« أستطيع أن أساعدك ياسيدتي في نقل هذا الكرسي ؟ »
فابتسمت في لطف ، وقالت :

« أشكر لك جداً ، ياسيدى . لا موجبَ مطلقاً لأن
تسحب نفسك ! »

ولكني أخذتُ المقعدَ منها ، وحملته وأنا أبتسم . وسرت
إياها ، ثم قلت :

أتعجبك هذه البقعة ؟

— إنها من أجمل المناطق التي رأيتهـا في أسفارى !

— والفندق . . . أتجدين فيه راحتك ؟

— كل ما هو فطرىّ ساذج أجده فيه راحتي المنشودة . . .

وأنت ، أمسروژ من إقامتك هنا ؟

— كل السرور !

— وهل تمكث طويلاً ؟

بضعة أسابيع . . . وأنت ؟

— 'قد أمكث حتى يغلِقَ الفندقُ أبوابه... إن لي مهمة'
أريد قضاءها، ولا أدري كم تتطلب من الوقت !
وسقطتُ من يدها عفواً حزمة الصحف ، فانحنيت عليها .
وجمعتها لها ، فإذا بها من الصحف العربية . فنظرت إليها مستطلعةً .
فابتسمتُ وقالت :
لي شغفٌ ببلغتكم ، وقد استطعتُ بعد دراسة بضعة أشهر
أن أقرأها ...

— وكيف تجدونها ؟

— صعبة ، ولكنها موسيقية ساحرة !
وابتسمتُ ، فابتسمتُ أنا أيضاً .
وكنا قد وصلنا إلى ركنها المختار ، فأزلتُ الكرسي ، وأعددتُه
لها ، وأحسست رغبةً تدفعني لأن أطيل الحديث معها . ولكني
خشيت أن أعكر عليها صفو وحدتها ، فانحنيتُ أمامها أحسباً .
وفيما أنا عائد أدراجي وجدتها تبسط الورقة المبطنّة بالنسيج أمامها ،
فاسترقتُ النظرَ إليها ، فإذا بها « خريطة » لبعض الجبال ،
عليها بعض العلامات بألوان مختلفة . ورأيت « مس إيقانوس »
قد انحنيت عليها تستفحصها وتدرس خططها بانتباه ...

وانقضى يومان لم أرفيهما «مس إيفانس» إلا «لِسَامَا» ولم
تسّح لي الفرصة أن أبادلها الحديث . وفي اليوم الثالث لقيتها
في الحديقة ، وهي تجرُّ مقعدها الطويل ، ذاهبةً به إلى ركنها
المنعزل المشرف على الوادي . فأسرعتُ إليها ، وثُبتُ عنها في
حمل المقعد ، فنظرتُ إلى شاكِرة ، فقلت لها :
لم تشاركينا في الطعام طَوَالَ يومين . أرجو ألا يكونَ
بك بأس . . .

— أشكر لك . لقد كنتُ في نزهة جبلية !

— وحدك ؟

— أجل ، وحدي ، ولكنني قد أعتمد في بعض الأحيان على
إرشاد دليل . إنني مغرمة بمثل هذه النزهة الفردية !
وسرنا وقتاً صامتَيْن ، وأنا شديد الرغبة في متابعة حديثها
معي ، لعلّي أكشف شيئاً من غوامض أسرارها .
. . . ولما وصلنا إلى مكانها المختار ، بسطتُ لها مقعدها .
فقالت لي وهي تنهّئاً للجلوس :

« ألا تظنّ أن في العزلة واجتناب المجتمع منجاةً من
شرور كثيرة ؟ »

— ١٨ —

فَسِرَرْتُ مِنْ سَوَالِهَا ، إِذْ تَيَنْتُ فِيهِ الرِّغْبَةَ فِي مَجَازِبَتِي
أَطْرَافَ الْحَدِيثِ . فَقُلْتُ :

نعم . لا بأس بالعزلة المَوْقِفَتَةَ ، يَفْزَعُ إِلَيْهَا الْمَرْءُ بَيْنَ
حِينَ وَحِينَ .

— والعزلة الدائمة ؟

— إِنَّهَا تَبْتَلُّ يَاسِيدِي ، وَالتَّبْتُ لَا يُطَاقُ !

وَجَلَسْتُ عَلَى الْمَقْعَدِ مَتَمَدِّدَةً ، فَظَهَرَتْ مَعَالِمُ جَسْمِهَا الْفَاتِنِ .
وَحَدَقْتُ فِي السَّمَاءِ بَعَيْنِيهَا الصَّافِيَتِي الزَّرْقَةَ ، اللَّتَيْنِ تَكْشِفَانِ عَنْ
عِرَاقَةِ مَنْبَسَاتٍ ، وَسَلَامَةِ قَلْبٍ . وَقَالَتْ :

« إِنْ التَّبْتُ لَا يُرَوِّضُ نَفْسَنَا ، فَتَنْقَشِعُ عَنْهَا غِشَاوَتُهَا ،
وَمِنْ ثَمِّهِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى الْوُجُودَ عَلَى حَقِيقَتِهِ ! »

فَأَسْنَدْتُ ظَهْرِي إِلَى سَاقِ صَوْبَرَةِ عَتِيقَةٍ ، وَعَقَدْتُ
بِأَعْدَى بَصْدَرِي . وَقُلْتُ :

« وَمَاذَا يَهْمُنِي مِنْ مَعْرِفَةِ هَذَا الْوُجُودِ ؟ حَسْبِي أَنْ
أَعِيشَ فِيهِ ! »

فَوَحَّتْ إِلَيَّ ، وَقَالَتْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْإِهْتِيَاجِ :

إذا فهمنا الوجودَ على حقيقته ، اتصلنا بالسعادة الدائمة !
 — إن السعادة ياسيدتي حولنا ، غيرُ بعيدة المنال منا ،
 نعلم هذا الطريقُ الوعر ؟
 — إن السعادة التي تطلبها أنت وغيرك من طلاب الدنيا ،
 هي سعادةٌ رخيصة تافهة !
 — صدقيني ، ياسيدتي ، ليس في الكون إلا سعادةٌ واحدة !
 فقاطعتني ، غيرَ مَغْنِيَةٍ يا جابتي ، وقالت :
 « لقد كنتُ مثلكم ، أَسعى للاستمتاع بتلك الزخارف
 البراقة ، حتى تكشفَ لي المجتمعُ عن حقيقته ، وبأن لي زَيْفَهُ
 وبهتانَهُ . لقد وثقتُ بدنياكم هذه ، فأودعتها أعزَّ ما أملك ،
 وأودعتها قلبي ، ولكنها رَدَّتْ إليَّ هذا القلبَ مطعوناً . . . إلى
 أكره دنياكم . . . أكرها ! »
 وأخفتُ رأسها بين يديها ، ثم إذا هي تبكي . فوقفتُ أمامها
 حارّاً جَزِعاً ، وقد تَوَزَّعَني الألم . . . وسرُعاناً ما أخذتُ تهديُّ^٣
 من رَوْعها ، فكفكتُ عبرتها ، وهي تقول :
 « إني آسفة . . . آسفة جداً على ما بدرَ مني ! »
 فقلتُ متلثماً :

— ٣٠ —

لا موجبٌ للأسف مطلقاً... إنما... أأكونُ قد أسأتُ
إليكِ على غير قصدٍ ؟
— كلا... كلا !

وابتسمتُ ، فبهرتني ابتسامتها : لقد تجمعتُ فيها روعةُ
الأحزان في أنبل معانيها... فوقفتُ فترةً صامتاً أحرق فيها ، ثم
أقبلت عليها في تمهل ، وانحنيتُ على يدها ، فقبلتها قبلةً رفيقةً ،
بثنيها ما يَكُنُّه لها قلبي من إجلال...
وتركتُ المكانَ على الأثر .

قضيتُ اليومَ بأكمله ، أفكر في ما وقع لي مع « مس إيفانس »
وأنا شديد التألم لحالتها ، إذ وَضَّح لي أنها تنوءُ بحزن دفين ،
وتتغشَّر بخيبة في آمالها ، ولما نزل في اكتمال الشباب .
وانصرم اليوم التالي ، فلم أجسر على التحدث إليها ، واقتصرتُ
على قميتها يدي ، أو الإيماء إليها برأسي ، فكانت تردُّ التحية
بابتسامة حلوة .

وفي اليوم الثالث أطلتُ إقامتي في الحديقة عامداً ، فلما رأيتها
مقيلةً ، ذهبتُ إليها وحيثُها ، ثم قلت :

— ٢١ —

إن الجو اليوم حارّ ...

— أليس هذا عجيباً مع أننا على ارتفاع ألفي متر ؟

وصمت لحظة ، ثم قالت :

لقد بحثُ عنكَ أمس ...

— تقصدينني ؟

فابتسمت ، وقالت :

نعم ، أنت !

واتجهت نحو مقعدها الطويل ، فأسرعتُ إليه وحملته .

وسرت وإياها في الطريق الضيق المتلوى ، المظلل بشجر الجوز ،

المفضي إلى ركنها المعهود . وأنا مُرهِفٌ سمعى ، أنتظر حديثها

بصبرٍ ذاهب . ولكنها لم تتكلم ، فظِلْتُ صامتاً ..

ولما وصلنا ، جعلتُ أهْيُّ لها المقعد ، تقدمت نحوى ،

وأخذت يدي ، وقالت في لهجة مؤثِّرة :

« فلنكن صديقين ! »

فقلت متحمساً :

« سيدنى »

واحتبس القولُ في فمي ، فلم أزدُ حرفاً ... ولبثنا صامتين

وقتاً ، وقد تمددت « مس إيفانس » على المقعد ، وانصرفت

— ٢٢ —

تنظرُ إلى السماء . وجلستُ أنا على كُومة من الهشيم بجوارها
وبعد حين سمعتها تتكلم ، وهي ما تزال إلى السماء ناظرة :

« ولكن لاتنس يا صاحبي أمراً واحداً . . . »

فقلت بلهفة :

وما هو ؟

— أنى امرأة بلا قلب !

فضيت أرنؤ إليها حائراً ، ثم تناولت يدها في سكون ،
وجعلت الألفها . وقلت ، وأنا أيتسم ابتسامة عليها مسحة الحنية :
ولكنها مفعمة بالإخلاص :

ثقي أنى سأحترم لك هذا الشعور . . . اعتمدى على
صداقي !

— شكراً . . .

وأسبلت جفنيها ، كأنها تستدق النعاس . ومكثت أنعم
النظر في وجهها الوسيم ، الصافي البشرة ، وأنا أناجي نفسي :
ماذا تخفي هذه الصفحة الهادئة تحتها من تيارات عاصفة
جارية ؟ . . .

ثم نكست رأسي ، وجعلت أنبش الأرض بعودي يابس .

ووقع نظري على كتاب « مس إيفانس » ملقاً بجانب مقعدها ، ولم أكن قد انتهت لوجوده . فتناولته ، فإذا به يبحث في الفلسفة الصوفية . وطفقت أقلب صفحاته ، ثم استهواني بحث من أبحاثه ، فانطلقت أقرؤه . وما كدت أنتهي منه ، حتى ابتدرتني « مس إيفانس » تقول :

إنه كتاب لا يوافق أميالك !

— ولكن موضوعه طريف شائق ...

— أتراه كذلك حقاً ؟

— إنه يضطرُّ القارئ إلى التفكير في مسائل قلَّما تسنح لفكره .

ثم صمتُ فترةً ، وأنا أعبث بالعود في يدي . وتابعت قولي :
« إننا في الواقع لا يمكننا أن نصل إلى فهم هذا الوجود بالآيسة الماديَّة وحدها ، فيجب أن نتجرّد عما هو عالق بنا من ... »

فراحت « مس إيفانس » تضحك ... فقلت على الأثر :

أتظنينني غير مخلص في قولي ؟

— أرجو أن تكونَ مخلصاً !

فابتسمتُ ، وقلت :

إن الصوفية لتستهويني حقاً ، ولا سيما إذا أخذتها عن
أساندةٍ مثلك !

— هذا غيرُ كافٍ ، ياسيدي . . . إن الصوفية تتطلب
فداءً جسيماً . وكبير على النفس أن ترضى بهذا الفداء الجسيم من
تلقاء ذاتها .

— ولكن . . .

فتابعتُ قولها :

« قد تعترضُ المرءَ في تاريخ حياته حادثة ، حادثةٌ واحدة ،
تحوّلُ خطّةَ سيره ، وتُخلّقُ به في جَوْءٍ جديدٍ يُقَسِّره على تغيير
نفسيته . . . ومن ثم يتهيأ لقبول الحقائق الصوفية بلا مكابرةٍ
ولا عناد . »

وطرق أسماعنا حفيفٌ فيما وراءنا من الأغصان . فالتفتنا معاً ،
فاذا « حبيب » الخادم يتقدم من « مس إيفانس » ويقول لها :
لقد حضر الدليل ، فهل تأذنين بمقابلته ؟

— فليأت !

وغاب « حبيب » هُنَيْهَةً ، ثم عاد ومعه رجل منبسط القامة

عريض الجوانب ، مكشَّزِ العَصَلَات ، له شارب غليظ ، كأنه
مصنوع من الآبنوس ، ورقبة كأنها الجذع العتيق . . . ينظر
إلينا نظراتٍ حاذةً ، كأنه يزدرينا !

واقترَب الرجلُ من « مس إيثانس » ، وجأها ، فأحسَّتْ
لقاءه ، ثم التفتتْ نحوى ، وقالت وهي تلتطِّف في بَسْمَتِها :
« أقدم لك دليلي الذي أعتمد عليه في ارتياد هذه المنطَقة » .
ودنا الرجل منى ، وصافَحَنِي في شيء من التحفُّظ ، وقال
بصوت خِشِن ، وهو يفتل شاربَه ، أوبالآخرى يداعبه مزهُواً :
« محسوبك مجاعص » ، ابن الجبل . . . أعرف هذه الجهة
ومخابئها وطرقاتها كما أعرف أصابع يدي . . . يمكنني — صيفاً
وشتاء — أن أسري في الليل كما أسير في النهار ، لا تعوقني
خلابة ، ولا رياح ، ولا لصوص ، ولا ضواري ، ولا . . .
وخشيتُ أن تمتد ثرثرته ، فسعلتُ مقاطعاً إياه . وقلت :
« تشرفنا يا سيد مجاعص . . . »

والتفتتُ إلى « مس إيثانس » فوجدتها تضحك في صوت
مكتوم ، وقالت لي :

« إنه كثير الفخر بنفسه ، ومظهره يدلُّ على القسوة ، ولكنه

— ٢٦ —

في الحق طيبُ القلب . . . وعلى كل حال فهو رجل قد يُفيدني
في رحلتي . . .
— أيّ رحلة ؟

— رحلة سأقوم بها في هذه المنطقة . . . لكشف أثر ثمين .
— أثر ثمين ! . . . وهل تنغيين طويلاً ؟
— لا أدري . . . ربما تنغيثُ أياماً معدودة . . . وربما . . .
ثم صمتت وهي تبسم ابتسامة غامضة فيها شيء من الاستسلام
للأقدار . فقلت لها :
ومن تصحبين ؟
— هذا المجاعص !
— وحده ؟
— نعم !

فحملتُ فيها مدهوشاً ، فأتمتْ هي كلامها قائلة :
« إن المخاطر تستهويني . . . وكلما عظمُمتُ أحسستُ رغبتي
قد اشتدت في التغلّب عليها » .

وانبعث « مجاعص » ، يحدث « مس إيفانس » في شأن البغال
التي يريد انتقاءها للرحلة . وأفاض في الحديث . فإذا به يلقى

محاضرة في منافع البغل ، وما حبه الطبيعة من قوة بنية ،
واستعداد لتحمل المشاق ، ومهارة في اختراق شعاب الجبال
وتسلق صخورها : ثم انعطف بعد فراغه من ذلك إلى تقسيم
البغال وفق ألوانها : فهناك البغل الأغرّ ، والأصهب ، والأدهم .
فالأول عند حرّون ، والثاني طائش ولكنّه لا يخلو من جبن ،
والثالث ...

وما إن وصل في حديثه إلى هذا الثالث ، حتى رأيت
« مس إيفانس » قد قامت وقالت له :

إني واثقة بخبرتك ، فانسق لي ما يصلح لرحلتنا منها ،
وأخبرني بالثمن . ولاتنس الغرارات والخيام . . . أتريد قائمة
مفصلة بما أطلب ؟

— ليست لي بها حاجة . . . إن القائمة في رأسي ، لم
يُنجِب « لُبنان » رجلاً أوسع من خبرة ، ولا أقوى من ذاكرة ،
فاطمئني من هذه الناحية . . . ألم أحدثك بما وقع لي مع السامح
الأمريكي « مستر استانلي » ؟

فبادرت « مس إيفانس » بالإجابة ، قالت :

نعم ، لقد سبق أن حدثتني في هذا . . . والآن ، إلى اللقاء .

— إلى اللقاء ، ياسيدى . لا تخشى شيئاً ما دمتِ فى
 حماى . اعتمدى على الله ثم على ...
 وانحنى أمام د مس إيفانس . ثم ما ليث أن دار على
 عقبيه فى الدرب الملتوى .
 وقلت لـ د مس إيفانس ، وأنا ما زلت جالساً على كومة
 الحشيش :

لا أدرى ما الذى يحملكِ على اصطحابِ مثل هذا الجلاد ؟
 ألا تخشينه ؟
 — لا أخشى أحداً من سكان هذا الجبل لى قد
 خبرت طبايعهم ، فإذا هم من أسلم الناس طويّةً . هؤلاء
 يا صديقى يعيشون على الفطرة ، وقد حبتهم حياة الجبل أنبل
 الخصال وأشرفها

— وهذه الرحلة ، وذلك الأثر الثمين ... ؟

— إنها سلة أَدفع بها مَكلَ الحياة !

وجاء فى ذلك الوقت د حبيب ، يحمل البريد ، فأعطى
 د مس إيفانس ، رسالة ، ثم ناولنى لفيفةً تحمل طابعَ بريد
 مصر ، وهو يقول مبتسماً :

— ٢٩ —

أظنك الآن ، ياسيدى ، مرتاحَ الخاطر لوصول ، الرزْمَةِ .
لقد سألتنى عنها كثيراً .

— لقد تأخر وصولها .

— لا تنس ، ياسيدى ، أن تحتفظَ لى بالصحف المصرية
بعد مطالعتها .

— بكل سرور .

وكانت « مس إيفانس » قد فضّت رسالتها ، فأخذت
تتلوها . ووجدتُ وجهها قد أشرق ، وعينها تلعبان . وما إن
أتمت قراءتها حتى قالت :

« إنهم حاضرون . . . هذا بديع ! »

ونظرت إلىّ ، وقالت :

المعذرة ، إذ أتركك الآن . . . إلى اللقاء ،

— إلى اللقاء ، ياسيدتى . . .

والتفت نحو « حبيب » ، وقلت :

« من هم الذين سيحضرون ؟ »

فطأ الرجل شفتيه ، وقال :

« علمى علمك ياسيدى ! »

— ٣٠ —

ورأيت طرفَ الرسالةِ الممزقَ على خطوةٍ مني ، فأخذته ،
وألقيتُ عليه نظرةً ، فإذا هو يحمل خاتَمَ البريدِ السوريِّ .
أما العنوان فسقيم الخط ، مكتوب بالإفريقية .

وسمعت « حبيب » يقول وهو متظاهر بأنهما كه في قشَر
عود يابس :

« ما زلتُ يا سيدي ، أنصحَ لك بالابتعاد عن هذه
السيدة ... إن ... »
فقاطعته قائلاً :

أشكر لك ، يا حبيب ، أشكر لك ... والآن أرغب في
أن تذهب إلى المطبخ ، وتوصي لي بصَحْنٍ من الأرز المسلوq
في العشاء .

— أرزٌ مسلوq ؟

— بي شيء من عُشر الطضم !

— إذا عليك بحبّة البركة ...

— لا بأس ، جهّزها مع الأرز ... اذهب فأنيذ
ما أمرتكَ به .

وذهب « حبيب » وبقيت بمفردي أتطلع إلى الأفق البعيد ،

وأنا أقلب الفكرَ في هذه المُعَمَّيات : رحلة « مس إيقانس »
العجيبة ، وهذا الأثر الثمين المجهول ، والزَّوَّار أصحابُ الرسالة .
.. وأخيراً هذا « المجاعص » الذي يحمل وجهَ قاتل !

ولا أدري كم مضى عليَّ من الوقت وأنا على هذه الحال .
ورأيتُ الشمس تنحدر الهُيُويَنِي في الأفق ، وقد أخذ يتلعبها
خِصَمُ الضباب القاني ، المتراعى بأطراف الوِديان ، الزاحفَ علينا
مع طلائع الليل . ومرت عليَّ نَسَمَةٌ باردة اختلجَ على أثرها
جسدي ، فقمْتُ متباطئاً وأنا أجمع حولي ملابسي ...

وفي الصباح ، عند ما أحضر « حبيب » الفَطُور ، وقعتُ
عينُهُ على رِزْمَةِ البريد التي وصلت إلى أمس من « مصر » ، وهي
على حالها لم تُفَضَّ ، فحدَّقَ فيَّ متعجباً ، فقلت :
« ليس عندي وقت لفضِّها يا حبيب ! »

فهزَّ رأسه موافقاً ، وعينه تنطقان بضدِّ ما أبدى . ولحنتُ
في جيبه مجلة « الاستقبال » المصرية المعروفة ، فقلت :

« أجدد هذا العدد أم قديم ؟ »

— ٣٢ —

فتتاب وتمطى طويلا ، وقال وهو يأكل أطراف الكلمات
من قرط كسّته :

آخر عدد ياسيدى . . .

— ومن أين حصلت عليه ؟

فتضاحك ، وأسند جسمه المجهود إلى الحائط ، وقال :

— أخذته خبيثته من الأستاذ كنعان ،

— خلسة ؟

— لا حرج علىّ فى ذلك ، ياسيدى . إن صحف الأستاذ

تَظَلُّ فى لفائفها أبد الدهر . وعند ما يضيق بها ذرعُه يرصّها

تحت السرير ، لتكون طُغمة الفيران . . . ألسْتُ أحقّ من

الفيران بها ؟

— طبعاً يا حبيب . لقد أحسنت صنماً !

— ولكننى مع ذلك أحبُّ الأستاذ كنعان ، وأعترف

بأنه رجل عظيم !

— إنه عالم كبير . . .

— وهو كريم الأخلاق جداً . أتصدّق أنه قضى ليله أمس

فى صحنى ، نخسّى العرقى ، ونسمر حتى السحر ؟

وفسّرَ فاه بغتةً عن تشاؤمةٍ كريهة بصوت مُفزعٍ . وسمعا
صوتَ الشيخ عاد ، يناديه ، فحاول استعادةً نشاطه ، وهو ورك
خارجاً من الحجرة ، وهو يتعثر في خطاه .

وأخرجتُ إلى الشرفة ، وأرسلتُ الطرفَ حولي أتأملُ جمالَ
الطبيعة في ذلك الصباح البديع . وكان بعضُ الرعاة من البدو
يضرّبونَ خيامهم في سفح الجبل البعيد . فأخذتُ منظرِي ،
وبقيتُ أراقبهم في اهتمام . وأنا أغبطهم على حياتهم الساذجة
السهلة الصادقة ، وتمنيتُ لو استطعتُ أن أحياء مثلهم وقتاً من الزمن !
وتركتُ الشرفة ، وخرجتُ إلى الحديقة بخطأ هيئسة ، وقد
اعزمتُ أن أقضي شطراً من يومي في الخلاء ، أرتاد المنطقة
منفرداً ، كي أستمعَ بلذة الوخدة بين أحضان الطبيعة .

وبينا كنتُ أخترق الحديقة ، قابلتُ « الأستاذ كنعان » ،
يحمل وِسادةً تحت إبطه ، وهو يحجر نفسه في مشقة
فتصالحنا ، وقال لي :

إلى أين ؟

— بي رغبة في ارتياد هذه المنطقة التي تحيط بنا . أليس
من العار أن أعيش فيها ، دون أن أعرفَ عنها شيئاً ؟ أتصدّق
أنني لم أفارقَ الفندقَ وحديقته منذ قدّمتُ ؟
(٢)

فنظر إلى بعيونه المنتفخة المُطَبَّقةِ الأجفان ، وانفجرت
أشداقه المزهلة بقوله — وهو يحاول نَصْبَ قامته — :

لقد أحسنتَ صنعا ، يا ولدى ، بتداركِ هذا النقص ...
إنك لو علمتَ ماذا تحوى هذه المنطقة من كنوز طبيعية نادرة ،
لاستحوذتَ عليك الدهشة والتعجب !

— أقمتَ فيها بأبحاثٍ علمية يا أستاذ ؟

— إنك لو سألتَ حَصْبَاءَ هذا الوادى ، واستجوبتَ
صخورَ ذلك الجبل ، لروتَ لك ما عانيتُ من مشقة فى بحثي
واستقصائي . أنت تجهل بلاريب أنى أُعدُّ محاضرة فى طبقات
أرض هذه المنطقة ، وأطوارها فى التاريخ ...

— بحث تمتع بلاريب !

— ولكنه متعب يا ولدى ! أتصدقُ أنى قضيتُ ليلةَ
أمسٍ — لم يَغْتَمِضْ لى جَفَن — وأنا منكبٌ على أوراقى
وكتبى ، والقلم لم يبرحْ يدي لحظة ؟

— كان الله فى العون !

— والآنَ أنا فى حاجة إلى التمدُّد قليلا فى الحديقة .
أليس لأبداننا علينا حق ؟

— ٣٥ —

— دون شك يا أستاذ . . . ولماذا تركت حجرتك ؟

— إنها بجوار المطبخ ، فالدُّق لا ينقطع في ليل ولا نهار .

وظهر لي هنا « الشيخ » عاد ، بغتة ، وسمعناه يقول ، وحياتُ

« الشَّبَحَةِ تَتَنَقَّلُ بين أوصابه :

« ستَنَعَم يا أستاذ ، من الغد ، بنوم هَيَّي . لقد أمرتُ بنقل

المطبخ إلى مكان بعيد

فقلتُ :

« حقاً إن الأستاذ لا ينال حظه من هادى النوم ، مع أنه

يحتاج إلى الراحة . إنه دائم التجوال في المنطقة المحيطة

بنا باحثاً منقياً ، يدرس طبيعة الأحجار .

فقال ، الأستاذ كنعان ، موجهاً كلامه إلى :

« أحسبك سوف تحذو وتحذوى . .

فالتفت إلى « الشيخ » عاد ، وقال :

« ماذا ؟ ألك أنت أيضاً شَغَفٌ بهذا العلم ؟

فقص « الأستاذ كنعان » على « الشيخ » عاد ، رغبتى في

الارتياح هذه المنطقة . فقال الشيخ :

« كلكم هذا الرجل . . . غير أن مس إيقاس
تفوقكم في هذا الشغف ، ولها غرام جنوني بالكشف عن
الآثار المجهولة . . »

انظرت إليه متسائلا ، فروى لي كيف أنها كلفت مساعدها
في الكشف عن أثر قديم ، يقال إنه قائم خلف هذه الجبال .

وتركت الأستاذ كنعان ، يهنأ بنومه اللذيذ ، وخرجت
من الفندق ، ووقفت قليلا أرسم خطة السير . وتلفت أحاول
تحديد الأمكنة ، ونور الشمس يسطع بشدة في ذلك الفضاء
الفسيح . . . فدفعت بقدمي ، وسرت أضرب في فلكوات هذه
البقعة الجرداء ، على غير هدى ووجدتني أسائل نفسي : ترى
هل أقابلها ؟ . . . وسرت ، ثم سرت ، والسؤال لا يفتأ
يتردد في خاطري . . . أتكون قد نصبت خيستها اليوم
بالقرب من مضرب هؤلاء الرعاة في ذلك المكان القصي ؟
وبعد لا شيء وصلت إلى هنالك ، وجبت الناحية ، فارتكت
موضعاً لم أزره ، وما وقع بصري إلا على هؤلاء الرعاة المتعشقين
بوجوههم الطويلة المشدودة بالبشرة ، وحولم أغنامهم الهزيلة .

وكلاهم الضامرة . وقد تجمع القوم إلى ، برحبون بي .
وبالغون في إكرامى .

وانجحت مرة صوب الشمال ، ومرة نحو الشرق ، وثالثة
إلى الجنوب ، وهلم جرا ، حتى أحسست قدسى لا تستطيعان
حملى . فأخذت سمنى أخيراً إلى الفندق ، وقصدت من فورى
إلى المدينة ، وذهبت حيث الأستاذ كنعان ، فوجدته
يغطى في النوم . فاخترت مكاناً غير بعيد منه ، وارف الظل
غزير الشجب ، فتمدت عليه ، ورخت فى سبات .

ولما حان وقت الغداء ، جاء حبيب ، فأيقظنا . . .
ولم تشاركنا مس إيفانس ، فى الطعام . وبعد أن انتهينا
من الأكل ، ترامت على مقعد مريح ، وانطلقت أدخن
وأتناول القهوة . وخرج الجميع فلم يبق فى الحجرة إلا أنا
وحبيب ، وكان ينظف المائدة . ولضيق المكان فى الفندق ،
كنا نتخذ حجرة الطعام بهواً للسامرة والتدخين . وكان حبيب
وحبيب ، متفخاً بالشخف والمجلات . وسمعتة يفيض فى

حديث لا مُنتَهَى له ، لم أعره اهتمامي ، إذ كنتُ مشغولاً بالتفكير
في بعض شأني .

ولما انتهت مهمَّته ، ورأى مني إغراضاً ، تركني في الحجرة
وخرج ، فسكنت وحدي أنعم بتدخين لفائي . وفيما كنتُ على
هذه الحال ، شهدتُ مس إيفانس ، تدخلُ الحجرة ، فوقفتُ
على التواء أحبيها ، فقالت :

أخشى أن أكون قد قطعتُ عليك سبيلَ تفكيرك !

— لم أكن أفكر في شيء بعيدٍ عنك !

— كيف ؟

— أصرح لكِ أنني كنتُ أفكر في رحلتك ..

— إلى هذا الحد تهتمُّك هذه الرحلة ؟

— أعترف لكِ بأنني كثيراً ما فكرتُ فيها ..

— وكيف تراهي ؟

— أراها مخاطرة تستوجبُ الحذر .

فضحكتُ طويلاً ، وقالت :

« إنك تبالغ ... »

— ٣٩ —

ثم جلست ، وأشعل كلُّ منا لفاقة ، وغمرنا الصمتُ
هنيئَةً . وأخيراً تكلمت : « مس إيفانس ، وهى تنفث دخانَ
لفاقها فى تأنٍ . وقالت :

لعلك تعجبُ إذا أخبرتك بأننى صرفت أكثرَ من عام ،
وأنا أشتغل بجمع المعلومات عن هذا الأثر الثمين الذى حدثُكَ
فى شأنه ، حتى استطعت أن أحقق موضعه . . .

— وكيف انتهى إليك خبر هذا الأثر الثمين ؟

— حضرتُ فى الصيف الماضى إلى « لبنان » أنشد العزلةَ فى
هذه البقعة الساكنة ، فسمعتُ من بعضهم قصةً عن « قصر
مسحور » تسكنه الأشباح ، ينطوى عليه بطنُ الجبل الذى
يحيط بنا . فشغفت بهذه القصة . واعتزمتُ ارتيادَ هذه البقعة ،
لاكتشافِ موضعِ القصر ، وإمالةِ اللثام عن سرِّه الخفى . . .
فقلت ، وأنا متحير :

أيمكنُ هذا الأثرُ الثمين وقصرُك المسحورُ شيئاً واحداً ؟

— هو ذلك !

فصمتُ حيناً ، وأنا أحدِّقُ فى وجه « مس إيفانس »
لأنَّ ثبوتَ من صدق قولها . وقد خطرَ ببالى — أول وهلة — أنها

— ٤٠ —

تهزأ بي ، فرأيت وجهها ينطقُ بصدقٍ وإخلاص . فقلت لها :

أتعتقدين إمكانَ رؤيةِ الأشباح ؟

— لم أر في حياتي حتى الآن واحداً منها !

ومكثتُ تحدِّقُ في دُخانِ لفاقتها ، وتقول :

« إنما قد ... »

فقلت لها :

أوثقةُ أنت من وجود هذا القصر؟ أخشى أن تكونَ القصة

أسطورةً من الأساطير !

— كلا ، لقد تأكد لي وجودُه ، وهو قائمٌ في بقعةٍ موحشةٍ

نأت عن العمران ...

— وهل حدثتُك في شأنه شخصٌ رآه بعينه ؟

زما كدت أتمُّ جهلي ، حتى قدِمَ علينا حبيب ، وقال

« مس إيفانس » :

« الثلاثة الرُّؤُور الذين تنتظرينهم قد حضروا يا سيدتي ... »

فالتفتت نحوى « مس إيفانس » وهي متلهةُ الوجه ، وقالت :

« إن هؤلاء الزوارَ يستطيعون الإجابة عن سؤالك ، باللهِ

من اتفاقٍ غريب ! »

وقالت له حبيب :

« أَدْخِلْنِهِمْ حَالَا ،

وَاتَّئِنْتُ إِلَى تَقُول :

« لقد حضروا في الموعد الذي حددته لى فى الرسالة . ألا
تحرى أنهم جديرون بالإعجاب ؟ »

وبعد قليل دخل الحجرة ثلاثة رجال من العرب ، لا يختلفون
فى رِيْبِهِمْ وَسَخْنَتِهِمْ عن رُعاة الغنم . . . وأرسلت عني فيهم ،
فلم أستطع أن أتبينَ فرقاَ يُميِّزُ بعضهم من بعض ، فكأنهم
توائم . وأقبلوا علينا ، غيَّسُوا أحسنَ تحية ، ووزعت « مس
إيفانس » عليهم اللقائف ، وأمرت لهم بالقهوة ، وبدأت تحادثهم
بعريتها المبهشممة ، فى لهجة لطيفة . . .

وألقيت سؤالى عليهم ، فوجدت واحداً منهم قد نهض قائماً ،
وتقدم من « مس إيفانس » ووجهه يفيضُ حماساً ، وهو يقول :
« لقد كنتُ واحداً من عَشْرَةِ رجالٍ ، قاموا للكشفِ

هذا القصر ا ،

فقلتُ له :

وهل وصلتمُ إليه ؟

— ٤٢ —

— كذنا ، ولكنتا لم نفعل !

— لماذا ؟

— لقد منعنا شياطين القصر !

فتضا حكنتُ مقهقها ، فدنا الرجلُ مني ، حتى لم يعدْ بيني وبينه
إلاَّ خطوةٌ واحدة ، وقال ، وقد اشتدت لمعةُ عينيه :

« أقسم لورأيتُها وهي على ذِرْوَةِ الجبل تُلقي علينا الحجارةَ
الغليظة ، لما بدَرَتْ منك هذه الضَّحكة ! »
فقلتُ مُحْجَاً جِياً :

« وهل رأيتُها أنتَ بعيني رأسك ، وهي تقذفُ عليكم
الحجارة ؟ »

فاتنفض الرجل انتفاضةَ المحموم ، ودقَّ صدره يدينه ...
وقال :

« أو تظنُّني كاذباً ؟ »

وكان « حبيب » قد أتى بالقهوة ، فعاد الرجل إلى مجلسه ...
والتفتتُ إلى « مس إيفانس » وقالت في طُمَأْنِينَةٍ موفورة :

« إنهم لا يكذبون ... »

ثم سألتُ في تفاصيل ذلك الحادث ، فطَفِقَ يقول :

« كان ذلك منذ خمسةٍ وعشرين عاماً ، وأنا في أنصُرِ عمرى »

أرسلنا المُتَصَرِّفُ مع بعض رجال الدَّرَكِ لِنُبْحَثَ عن هذا القصر، وكان قد اتصلَ بعلمه أنه يَحْوِي كَنُوزاً. فانطلقنا في شِعَابِ هذا الجبلِ الأغر، كأننا الذئبُ الجِياعُ تَبْحَثُ عن فريسة. وقضينا عَشْرَةَ أَيامٍ، حتى كدنا نَهْلِكُ، وما إن شارفتْ مهمتنا تمامها، وأوشكنا أن نصلَ إلى القصر، حتى أحسنا الجبلَ يَتَزَلَّزَلُ ويتفككُ حولنا، وسمعنا دَوِيّاً قاصفاً، وانطلقت الحجارة هاويةً علينا، كأنها طَلَقَاتُ الرِّصَاصِ. وصَرَخَ أَحَدُنَا: «الشياطين ترجئنا... الهرب الهرب!»، فرفعتُ رأسي فإذا أشباح سودٌ هائلةٌ يندلع من عيونها اللهبُ، تتضاحك في بشاعة، وترمينا بِكُتَلِ الحجارة الضخمة. فكلما أراد الهربَ من هذه الكُتَلِ واحدٌ منا، رمى بنفسه في الهاوية، فلا يصل إلى قاعها إلاَّ مَحْطَماً... لقد قُضِيَ على زملائي كلِّهم في لحظات معدودة، ولم ينبجُ أحدٌ غيري. نجوت وأنا في حالةٍ يَفْضُلُنِي فيها المِيتُ! فقلت له:

وهل رأيتَ بنفسك القصرَ؟

— أصدقكَ القول... إني لم أَرِ شيئاً في شكل قصر..

ولكنني أبصرتُ جزءاً من جبل به بَـفَـجَـوَات كالتى تكون عادةً
فى الجبال . وقد أشار إليها رئيسُ الدَّرَك وهو يقول :

« هذا هو القصر المسحور ! »

« وهنا سألتُه « مس إيفانس ، هل يرضى أن يرافقها فى رحلتها ؟
فاعتذر بكبر سنه وكثرة من يعولهم من أفراد أسرته . ولكنه
وعدّها أن يقدمَ لها كلَّ ما عنده من معلومات ذاتِ شأن .

وروى لنا ثانى الزوار حكايةَ شابٍّ استهوته قصة القصر
« المسحور » ، فخرج منفرداً يطلبُ كشفه ، ولكنه لم يَـعُـدْ ، ولم
يسمع عنه أحدٌ خيراً . فنظرتُ إلى « مس إيفانس » ، وقلتُ :

« على الرغم من كل ذلك تستهدين للخطر ، وتُصرِّين على
الذهاب لاكتشافه ! »

فابتسمتُ ابتسامة عريضةً . وقالت :

« قلتُ لك إننى أهوى المخاطر . . . أضف إلى ذلك أن
اعتقادی وثيق فى القضاء والقدر . . . »

ومع معارضى لها ، ودهشتى لإصرارها ، كنت فى صميم نفسى
معجباً بشجاعتها النادرة ، موافقاً على رخصتها الخطيرة ، وقلتُ لها :

« إذا صحَّ وجودُ هذا القصر ، فسيكون من أكبر العجائب ! »

— ٤٥ —

— وهذا ما يخفّرني لاكتشافه .

— هل وصلت إلى معرفة تاريخه ؟ في أيّ العصور بُني ؟
ومن شَيْده ؟

— لدى معلومات مُهوّشة في هذه النقطة ، ولكن الشيخ
وعدني أن يأتي لي بالخبر اليقين . . .

وفي الغدِ شاركتنا « مس إيفانس » في طعام الفداء .
وكان حديثنا على المائدة حديثاً مألوفاً ، لم يتعدّ اعتدال الجوِّ ،
وطيب الفاكهة ، وجودة المياه . ولما اتينا من الأكل ، دعاني
« الشيخ عاد » لتناول القهوة في حجرته الخاصة ، ودعا معي
« مس إيفانس » و « الأستاذ كنعان » . وجلسنا على الوسائد
الأرضية المريحة ذات المساند الليّنة . وكانت حجرةً بديعة ، كلُّ
ما فيها ينطق بذوق شرقي أصيل .

وأوصى « الشيخ عاد » بأن تجهز القهوة والزاجيل ، وهو يقول لنا :
« لدى طباق عجميّ فاخر ، لا مثيل له في الشام كلها » ،
وأخرج شُبْحته ذات الحباتِ الحمرِ الكبيرة اللامعة ، وأخذ
يداعبها بين أنامله هنيئة ، ثم قال في صوت رفيع ، ولهجة رزينة

« حقاً يا « مس إيفانس ، إن حكاية قصرك المسحور أعجوبة
الآعاجيب . كنت معتقداً قبل تكليفك إياي استقصاء خبره ،
أن قصته خرافة من الخرافات الشائعة ، فلم أعرها اهتماماً
مطلقاً ، ولكني الآن بعد أن بحث الأمر جلياً أجدني أمام أثر
طريف له تاريخ عجيب . »

فأشرق وجه « مس إيفانس ، والتفتت إلى متسمة . وتكلم
« الأستاذ كنعان ، فقال :

« لقد درست آثار سوربة جميعها ، ومن بينها هذا القصر ،
وإني لأدهش كيف خفي أمره عليكم إلى هذا الحد . »
فابتسم الشيخ ابتسامة لطيفة ، فيها إشفاق ومداغة ،
وقال :

« إذا حدثنا أنت ... إننا لفي شوقٍ عظيمٍ لسماع
ما عندك . »

وفي هذا الوقت جاء « حبيب ، بالقهوة ، ثم خرج ...
وعاد بعد وقت قصير يحمل النراجيل الأربع ، ووضع أمام كل
حناة واحدة منها ، ثم مضى ...

وعمّ الصمت المكان فترة من الزمن ، ثم بدأت الحجرة

تجاوب بقرقرة هادئة ، كأنها ضحكات مكتومة من كائنات غير منظورة . . . وأخذت تنعقد أمانا وفوق رموسنا سحب رقيقة ، فتمتد وتغلظ تارة ، ويندمج بعضها في بعض تارة أخرى ، فتبدو لنا كأنها أشباح عجيبة تزدحم علينا ، لتصفى إلى ما تحدث به في أمر هذا القصر المسحور !

ونحنى « الأستاذ كنعان » فنه عن مبسم النارجيلة ، وقال :
« كان يحدّر بكم أن تسألوني في هذا الأثر العظيم . إنه من بقايا الرومان ، وعمارته يزنطية بحتة ، والذي شيده الإمبراطور يوليان . . . »

فقلت له :

« ولكننا ، يا أستاذ ، أمام قصر حديث ، بناء أحد شيوخ الجيل ! »

فزوى « الأستاذ كنعان » ما بين حاجبيه ، وتحركت شفاهه حركة إنكار ومعارضة ، وانهمك في نارجيلته يستمع إلى قرقرتها . . .

ووصل « الشيخ عاد » ما انقطع من حديثه ، قال :
« لقد بنى هذا القصر رجل يسمى « الشيخ بشير الصافي » . »

كان شيخا من شيوخ الجبل المشهورين ، موطنه في الجنوب .
فليس هو من أبناء هذه الجهة . لذلك ظلّ تاريخه لنا نحن
سكان الشمال محوطا بالأسرار . وكان الرجلُ عظيمَ السلطان
على بني قومه ، توارثه عشائرتي ، وله مع الدولة العثمانية
مواقف مشهورة . . . وكان الولاية يرهبون جانبه ، ويحاملونه
ما استطاعوا ، ويضمرون له الشرّ للإيقاع به عند إمكان
الفرصة . ولكن فطنة الرجل وسعة حيلته ، جعلته يخشى أن
يقلب له الدهرُ يوما ظهرَ المِجَنِّ ، فاختار مكاناً في ناحية
الموحشة المنعزلة ، في ركن يُخفيه بطنُ الجبل ، ويصعب الاهتداء
إليه فشيّد فيه قصراً حصّناً ، اتخذَه ملجأً يعتصمُ به هو ومن
معه ، إذا اضطرم الأمر إلى الاستخفاء .

فسألته « مس إيفانس » :

« هل التجأ فعلا إلى هذا القصر ؟ »

« لا أدري على وجه التحقيق . »

وقلت :

« الغريب في هذه المسألة أن يشيّد شيخ مشهور من
مشايخ هذا الجبل ، ذلك القصر الغريب ، ثم يظلّ أمره خفيّاً
لا يكاد يعلم به أحد . »

فقال « الشيخ عاد » :

« إن الأسرار تُحيطُ بذلك القصر دائماً منذ بَدَنته . وهذا ما أَراده صاحبه له . ففي الوقت الذي كان فيه يُبنى — أو بالأحرى : يُنحت ، إذ أنه منقور في صميم الجبل — لم يكن أحد من أبناء هذه الجهة يعلم سرَّ بنائه . وهكذا ظلت حقيقته لغزاً من الألغاز ، وأصبح عند بعض الناس خرافة ليس له وجود ، وعند بعض آخرين مكاناً تَعْمُرُهُ الشياطين » .

فقال « الأستاذ كنعان » ، في اهتمام :

« وهل الشياطين فيه حقاً ؟ »

فابتسم « الشيخ عاد » ، وهو ينظر إلى « مس إيفانس » ، وقال :

« هذا ما ستحققه لنا مس إيفانس » .

وَجَمَّجَمَ « الأستاذ كنعان » ، وهو يرسل الدخان في عَيْبَتِهِ :

« لم أسمع في حياتي بـ « بشير الصافي » هذا مُسَيِّدِ القصر » .

ولم أقرأ شيئاً يتعلقُ بحوادثه مع الدولة . »

فقال « الشيخ عاد » ، وهو يحرِّكُ حباتِ بُحْبَحَتِهِ مبتسماً :

« ليس هذا ذنبَ الرجل يا أستاذ » .

ثم استدرك على جملته ، فقال :

— ٥٠ —

« لا تنسَ أن شخصية « الشيخ بشير » تكاد تكون من شخصيات الأساطير » ،

وسألت : « مس إيفانس » الشيخ ، قائلة :

ومن يملك القصر اليوم ؟

— لا أحد !

— أليس للرجل ذُرِّيَّة ؟

— كان له حفيد ، انتهت حياته بفاجعة ألّية !

— كيف ؟

وحدثنا جميعاً بأبصارنا في « الشيخ عاد » ، ورأيت « الأستاذ كنعان » يُنصِتُ إليه في شَغَفٍ ، على تظاهره بقلّة الاكتراث . واعتدل الشيخ في جلّستِه متربّعاً ، وجذبَ نفساً طويلاً من النارجيلة ، فانبعث لمانها هدير عال ، كأنما هي أيضاً تطالبه أن يروى لنا حكاية هذه الفاجعة !

قال الشيخ :

« قصة هذا الشاب الذي لَسِقَ حَتَفَه ، وهو في العشرين من عمره ، يرجع عهدها إلى ما قبل ثلاثين عاماً أو أبعد . كان اسمه « يوسف الصافي » ورث عن جدّه الشهامة والزعامة ،

حكما وَرِثَ عَنْهُ ثَرَوَةٌ جَلِيلَةٌ الْقَدَرِ . وَيُؤَكِّدُ النَّاسُ أَنَّهُ لَوْ هَادَتْهُ
 الْمَقَادِيرُ حِينًا لَبَزَغَ نَجْمُهُ ، وَلَأَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى هَذَا الْجَبَلِ .
 وَلَكِنْ . . . وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي كَانَ مَبْعَثَ نَسْبَتِهِ ! لَقَدْ هَامَ
 الشَّابُّ بِفَتَاةٍ مِنْ أَسْرَةِ عَرِيقَةٍ ، هَامَ بِهَا هَيَامًا جَنُونِيًّا ، وَبَادَلَتْهُ
 الْفَتَاةُ الْغَرَامَ ، فَأَحْبَبَتْهُ حُبَّ عِبَادَةٍ . وَتَنَاقَلَ النَّاسُ أَخْبَارَ حُبِّهَا
 الْعَذْرَوِيِّ الرَّائِعِ كَمَا يَتَنَاقَلُونَ الْأَقَاصِيصَ ، وَأَصْبَحَ الْعَاشِقَانِ
 بَطْلَيْنِ مِنْ أَبْطَالِ الْهَوَى ، كَقَيْسِ بْنِ الْمُلَوَّحِ وَلَيْلَاهُ ، وَجَمِيلِ
 وَبَشِينَتَيْهِ . وَرَفَضَ الْآبُ أَنْ يَزُوجَ ابْنَتَهُ «يُوسُفَ الصَّافِي» ،
 وَتَتَابَعَتِ الْأَيَّامُ ، وَأُعْلِنَتِ خُطْبَةُ الْفَتَاةِ لِشَابٍّ آخَرَ . . .
 وَحَلَّتْ أَخِيرًا أَيْلَةُ الرَّقَافِ . وَبَيْنَمَا كَانَتِ الْعُرُوسُ فِي مَنَصَّتِهَا
 مُحْفُوفَةً بِأَفْرَادِ أَسْرَتِهَا وَصَوْبِ مَحَبَّتِهَا تَنْتَظِرُ عَرُوسَهَا ، إِذْ ظَهَرَ
 «يُوسُفُ» ، أَمَامَهَا ، لَا يَدْرِي أَحَدٌ مِنْ أَيْنَ جَاءَ . . . يَزْعُمُ
 نَاسٌ أَنَّ الْأَرْضَ انْشَقَّتْ عَنْهُ ، وَيَزْعُمُ آخَرُونَ أَنَّ الْجِدَارَ
 انْصَدَعَ فَظَهَرَ مِنْهُ . . . وَلَبِثَ النَّاسُ قِطْرَةً فِي ذَهَابِهِمْ مَصْعُوقِينَ
 مِنْ هَذِهِ الْمَفْاجِئَةِ . وَمَا هِيَ إِلَّا أَنَّ أُخْرِجَ «يُوسُفُ» ، مِنْ
 صَدْرِهِ كَعْدَارَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَصَوَّبَتْهَا إِلَى الْفَتَاةِ فَأَرَادَهَا قَتِيلًا . . .

واستخفى من حيث أتى ، لا يعرف أحد كيف خرج ، وأى طريق سلك ؟

وصمت الشيخ عاد ، لحظة ، أمر في أنثائها ، حبيب ، بأن يغير لنا جمرَ التراجيل ، واستأنف الشيخ قائلا :

« وبعد انقضاء أشهر على هذه الحادثة ، روى الناس أنهم وجدوا جثة يوسف ، مطروحة بجوار جدول من الجداول ، وتحققوا أنه قتل نفسه برصاصة في القلب ، وبموته انقضت أسرة الصافي ، وانطوى مجدها العظيم . . . »

وسمعت من إيفانس ، تقول :
والقصر ؟

— إن الحكومة لم تُجَنِّ بأمره ، وقد تكون اهتمت بموضوعة وقتاً ما ، ثم أهملته لخطر موقعه .

— وهل سكن يوسف ، القصر قبل وقوع الجريمة ؟

— يشاع أنه سكنه فترة من الزمن ، وكان يُعيدُه لقضاء

شهر العسل فيه .

ففمغمت .

— ٥٣ —

« بِالتَّغْرَابَةِ أَطْوَارُهُ أَيْعِدُ قَلْعَةً فِي وَسْطِ الْجِبَالِ الْقَاحِلَةِ ،
لَتَكُونُ مَقَرًّا لَعُرْسِهِ ؟ »

فَقَالَ « الشَّيْخُ عَادَ » :

« الْجَنُونَ فَنُونَ ، يَاسِيدِي ! »

وَقَالَتْ « مَسْ إِيقَانَسْ » :

« رُبَّمَا ضَمَّ هَذَا الْقَصْرُ آثَارًا وَوَنَاقٍ تَكْشِفُ السِّتْرَ عَنْ
بَعْضِ الْخَفَايَا فِي قِصَّةِ الْعَاشِقَيْنِ ! »

فَأَجَابَهَا الشَّيْخُ :

« هَذَا مُحْتَمَلٌ يَاسِيدِي »

وَلَفْنَا جَمِيعًا صَمْتًا مَدِيدًا ، فَلَيْسَ مِنْ صَوْتِ فِي الْحِجْرَةِ سِوَى
« قَرَقَرَةِ الْمَاءِ فِي جُوفِ الزَّرَاجِيلِ ، وَزَفِيرِ أَنْفَاسِنَا نُرْسُلُهَا مِنْ
أَفْوَاهِنَا عَزْوَاجَةً بِالْدُخَانِ الْمُحَطَّرِ الشَّدِيدِ . »

وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ آذَنْتْ بِالْمَغِيبِ ، فَانْعَكَسَ لَوْنُ الشَّفَقِ
— الَّذِي يَغْمُرُ الْآفَاقَ الْبَعِيدَ — عَلَى نَوَاقِذِ الْحِجْرَةِ ، فَضَرَّتْ جَتَّ
أَرْكَانَهَا بِلَوْنِ أَرْجَوَانِيٍّ فِيهِ رَوْعَةٌ وَسِحْرٌ .

وَخَرَجَ « الشَّيْخُ عَادَ » ، مِنْ صَمْتِهِ ، يَقُولُ لَهَا « مَسْ إِيقَانَسْ » :

مَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ رِحْلَتِكَ ؟

— عقب انتهاء « مجامع » من إعداد الدواب والمؤونة....
 أيضا يُقَالُ أن يكون في صحبتك شخصٌ مخلصٌ، وبما
 أدَّى إليك بعض الخدمات؟
 فنظرتُ إليه مبتسمة، وفطنتُ إلى ما يرمي إليه، وقالت :-
 « إنى أرحب بك من أعماق قلبي ! »
 وتنحنحت طويلا، ثم قلت :
 « لقد استهوَتْنى قصةُ هذا القصر، ويلوح لى أن... »
 فقاطعتنى « مس إيفانس »، وقالت وهى ما تزال تبسم :
 « ويسر فى أيضا أن تنضمَّ إلينا... »
 ونظرنا نحن الثلاثة إلى « الأستاذ كنعان »، فالفينا منهما
 يدخن النارجيلة، أو بالأحرى متظاهراً بالانهماك... فقال
 « الشيخ عاد » :
 « أكبر ظنى أن الأستاذ يرحب بصحبتنا... ستجد،
 يا أستاذ، فى هذا القصر مادةً تاريخيةً طليبةً تزيد بها
 أبحاثك الشائقة ! »
 ورفع الأستاذ وجهه المتجهِّمَ نحونا، وابتسم ابتسامةً
 مغتصبة، وقال فى شيء من الاضطراب :

— ٥٥ —

« هذه رحلة تتفق وأميالى كل اتفاق ا »

وولكت « مس إيفانس ، أمر قيادة البعثة ، وإعداد معداتها
إلى « الشيخ عاد » . . . وقد قررنا ألا يكون لنا تابع سوى
« مجاصص ، وألا نأخذ من الدواب غير بغلتين ، واحدة للحمل
الحزمة والمسؤونة ، والأخرى تتناوب ركوبها . . .

٢

استيقظتُ في اليوم المحدود مبكراً ، في الخامسة ، وكان
يغمُرُنِي انشراح عظيم ، وخرجت الى الشُّرقة أستنشق نسيمَ
الصباح البارد في شَغَفٍ ، وأدور بعيني فيما حولي أستمتعُ بحمال
الطبيعة الخلاب . ثم عدت أتناول فطُوري من الفاكهة
واللبن الرائب .

وعند ما حلتِ السادسة ، كنتُ في وسط الحديقة منتظراً
الرِّفاق ، وبحوارى حُزمةٌ تحوى الضرورىَّ من ملابسى . ولم
يَطلُ انتظارى ، فقد ظهر « الشيخ عاد » و « مس إيقانس » ...
وكان « الشيخ عاد » يرتدى ثياباً عربيةً جميلة : كوفيَّةٌ زاهية
اللون حولها عقال مُقَصَّب ، وسروالاً من الجوخ الأسود مطرَّزاً
بوشىٍ متناسق ، وعِباءة من الحرير ناصعةً البياض ... أما
« مس إيقانس » فقد ارتدتِ صَدَارَ صوفٍ « بول أوفر »
وسروالاً بما يُلبَسُ لركوب الخيل ، وقبعةً من « الفلين »

عريضة بيضاء ، وحذاء عسكرياً يصل حتى الركبة . فكانت
بديعة في ذلك اللبس الرياضي ، وازدادت في عيني وسامة وحسناً .
أما أنا فكانت ملابسي في جملتها عادية ، ماعدا القبعة
بالعريضة .

وتصافحنا ، ونحن مشرقو الوجه ، كأننا في يوم عيد . .

وقلت له الشيخ عاد ، :

هل أعدَّ كلُّ شيء ؟

— كلُّ شيء مُعدَّ .

— والأستاذ كنعان ؟

— لم يظهر بعد .

وقالت « مس إيفانس » :

« نذهب إليه . . . »

وقصدنا إلى حجرة « الأستاذ كنعان » ، فراعنا صوتٌ غريب

يشيع في أرجائها ، فأنصتنا ، فإذا به غطيطٌ مزيج ، يعلو

ويهبط في نغمات شاذة ، وفي حشرجةٍ مقيمة . فتقدم

« الشيخ عاد » ، ودق الباب ، فلم يجبه إلا الغطيط ، وتابع

هذه ، والنائم على حاله يملأ الجوَّ بصوته الكريه وأنفاسه الجافة ...

واخيراً تقدمتُ و«مس إيفانس» نعاونُ الشيخَ في دقّه
الباب... ولكن لا حياة لمن تنادى !

وقامت بي رغبة صادقة في استطلاع سرّ هذا الغطيظ غير
الطبيعيّ . فاستأذنتُ صديقتي وصديقي ، وجعلتُ أنظر من
ثقب المفتاح ، فإذا بي أرى «الأستاذ كنعان» جالساً على سريره
يتميز غيظاً ، وهو منهمك في إرسال غطيظه العجيب ، يوهننا
به أنه مستغرق في نوم عميق . فرفعتُ رأسي ، وأشارت
لـ «مس إيفانس» أن تنظر ، ففعلتُ ، ثم أشارت هي إلى
«الشيخ عاد» أن ينظر ، ففعل... وتبادلنا النظرات المصحوبة
بالابتسامات ، وتركنا المكان ، نمشي على أطراف الأصابع .

كان ينتظرنا - عند مدخل الفندق - «مجامع» بالبختين .
وقد لاحظتُ أنه اعتنى بقتل شاربه ، وإكساب وجهه مظاهر
العظمة الكاذبة . وبعد أن تفقد «الشيخ عاد» لوازم الرحلة ،
أصدر أمره بالمسير ، فسرنا... «مجامع» والبختان في المقدمة ؛
ثم «الشيخ عاد» و«مس إيفانس» وأنا معها في المؤخرة . .
وقد أعدت إحدى البختين للركوب ، فمن أحسن منا تعبأ فهي

له ، وأما الأخرى فتحمل مؤوَتْسنا وما يلزم لنا .
وسرتُ بِحُطُوطَاتٍ مَزْنَةٍ ، أَضْرَبُ بِعَصَايَ الْأَرْضَ ضَرْبَاتٍ
تَلْسِجُ مَعَ خَفَقِ قَدَمَيَّ .
وكان الطريق صاعداً متعرِّجاً ، أرضه صُلْبَةٌ مملوءة بالحجارة ،
فكأنَّ هذا الضربَ من السير ضرورةٌ طبيعية تقتضيها هذه
الاحوال .

وسار رفاقي أيضاً مثلَ سيري ، فكانت تنبعثُ لوقعِ العِصِيَّاتِ
المتزن ، المُتَسَاوِقِ مع صوت خطانا على الأرض الصخرية ،
نغمة جديدة في أذني ، أشعرتني بخطر المهمة التي اعزمتُنا
الاضطلاعَ بها . فكأننا فرقةٌ من الجند ، توجَّهنا لكشف مخبأٍ
لبعض قطاع الطريق نباغتهم فيه .

وظَلَلْتُ مِنْكَسَّ الرَّأْسِ ، مغموراً بِسَيْلٍ من الأفكار
المتضاربة . فإذا رفعت عيني ، طالعتني هذه الأشكال الثلاثة :
« مس إيقانس » ، بقوامها المبسوطِ الفاتن ، وقبعتها العريضة .
« والشيخ عاد » ، بجسمه الممتلئ ، وكوفيته الحريرية الطويلة
المُتَدَّاب . وذلك « المجاعص » الذي يشبه الجلادين في مشيته
وهيئته . . . وكان ظلُّهم المتطوِّعُ بهم يَتَجَنَّبُهم وهو يتخايل

متكسراً على الصخور المختلفة في أشكال غريبة .

ولم أسمع « مس إيفانس » تتكلم . فهل كانت تفكر في مصيرها
كلما كنت أفكر ؟ ... وبدأنا نشعر بوطأة الحر ، فخلعنا
بعض الملابس ، وألقيناها على الأكتاف

والفتة ، الشيخ عاد ، إلى « مس إيفانس » يقول لها :
« أتشعرين بتعب ؟ »

فأجابته في لهجة تأكيد وأنفسة :

« كلا كلا »

وكان وجهها قد بدأ يحترق ، وتعرضه خيوط رقيقة من

العرق . . .

ونظرت إلى البغلة التي أعدت لمن يتعب ، وجعلت أفكر
فيمن يكون أول ركب . فازمعت في خبيثة نفسي ألا أكون
ذلك الشخص ، مهما يكن من إعياء .

وتابعنا سيرنا في صمت شامل . ولكن النسيم الخفيف الذي
كان يتمسح بوجوهنا ، جعل يحمل إلينا أصواتاً من بعيد ، تبيننا
فيها أهانج بعض الرعاة . . . وكان غناء ساذجاً لطيفاً أدخل
على بعض السطمانينة ، وغير شيئاً من نفسيتي الحرجة . . .

ولم يمحض على ذلك وقت طويل ، حتى سمعنا صوت
 الشيخ عاد ، يعلو في الجوِّ بأغنية تعبّر عن تلك الحياة
 الفطرية التي يحياها الإنسان البدائي في هذه النواحي المنعزلة .
 وشجاني غناؤه ، فأنصتُ إليه كلَّ الإنصات ، وشملتني سكونة
 نادرة ، وأدرتُ بصري فيما حولى ، فإذا بالجبال الشاهقة المخيفة
 التي كانت توحى الىَّ منذُ لحظة بالخطر ، تبتسمُ لي في جمال
 وجلال ... واختفت من مُخيّلي فرقةُ الجند الذين يريدون
 مباغتهَ اللصوص في المخايء ، وحطّت مكانها طائفةٌ من
 الحُجّاج الصالحين يسرون نحو المعبّد العظيم ، حيث يتتغون
 رحمةَ الله ورضوانه !

وسرنا كذلك وقتاً ، وغناءُ الشيخ عاد ، يصحّنا ،
 فيجدّد من نشاطنا ، ويوسعُ فُسحةَ الأمل أمامنا . وراحت
 خطواتنا وهي تُصعّدُ في بُطءٍ وانتظام ، تتّحد بالغناء ،
 وتؤلّف وحدةً فنيةً هي أقربُ إلى الرقص الإيقاعي الساذج ...
 وعدنا نرتدى ملابسنا التي خلعتناها ، إذ كان الجوُّ قد بدأ
 يبرّد ، والهواء يشتدُّ في هبوبة ...
 وأخيراً استوقفنا الشيخُ قائلاً :

— ٦٢ —

« فلننظر حولنا يارفاق ! »

فطُفِّئنا بأنظارنا ، فإذا نحن على السِّمَّة ، وإذا بالفندق تحتنا
تقطة ضائعة بين الصخور . . . وراعنا ما قطعناه من طريق
شاق عسير . وقال « الشيخ عاد » :

« هل لكم في أن تأكلوا ؟ »

فقلت :

« أشعر بجوع قاتل ! »

ووجدنا المكان يصلح للراحة ، فيه كثير من المغاور ،
فاخترنا مغارة صغيرة أجادت الطبيعة نحتها ، وكان الهواء يهب
بشدة ، فيكاد يطير أغصان رموستنا ، وينزع منا ملابسنا ،
فهرولنا إلى المغارة ، فاجتمعنا فيها .

وجاءنا بجاعص ، بالطعام ووضعه أمامنا ، فالتففنا حوله ،
وأخذنا نأكل في شهية نادرة . . . وقالت « مس إيفانس » :

« أخشى أن نأثى على الزاد في وجبتين أو ثلاث ، إذا استمرت
شهيتنا على هذه الحال ! »

فابتسمت ، وقلت :

« أمامنا الأعشاب والجذور . . . لن نموت جوعاً على
نأثى حال . . . »

وقال الشيخ عاد :

« إن مؤوتنا تكفى عشرة أيام ، فهل تظنّين أن الرحلة تستوعب أكثرَ من ذلك ؟ »

فأجابت :

« لا أظن ، ولكن هذا يتوقف على مبلغ نجاحنا . »

فقال مجاعص ، وهو يحاول إخضاع لقمة كبيرة حشاً بها فسمه :

« وإذا لم يُشر على القصر في مدى عشرة أيام ؟ »

فأجابت « مس إيفانس ، في يقين وحزم :

« لن أعود قبل أن أجد هذا القصر . »

فوقّف الرجل عن المضغ ، ونظر إليها مدهوشاً . فقلت له وأنا أضحك :

« لا بأس ، ياسيد مجاعص ، إن طعم الأعشاب والجنود للذيذ ، فيجب أن تُجرّب به وبو مرة في حياتك ! »

وانحى مجاعص ، على شاربه يفتله . . .

وبعد أن انتهينا من الأكل ، أخرج الشيخ عاد ، (الخريطة) من جيبه ، ونشرها أمامه ، ثم أخذ يدرّس معنا الطريق ، ويحدّد لنا الموقع الذى نحن فيه ، والبقعة التى نقصد إليها . .

وَأَلْفَيْتَ الْبَغْلَيْنِ تُنْقَلَانِ حَوَافِرَهُمَا عَلَى الصَّخُورِ فِي
جُهْدٍ كَبِيرٍ، وَأَخَذْتَ كِتَابُ الظَّلَامِ تَهْجُمَ عَلَيْنَا فِي إِصْرَارٍ ،
تَرِيدُ أَنْ تَضْرِبَ حَوْلَنَا نَظَاقًا مَنِيعًا لَا نَسْتَطِيعُ الْفَسْكَكَ مِنْهُ ،
فَاضْطُرَّ الشَّيْخُ أَنْ يُصْدِرَ أَمْرَهُ بِالْوُقُوفِ . فَوَقَفْنَا . . . ”
وَسَمِعْتُهُ يُهَمِّمُ :

« لا نندركُ قاعَ الوادى إلا بعد ساعة ، وقد أصبح السير
شديدَ الحُسْرِ ، فلننتظر قليلا .
فقلت :

« وعَلامَ الانتظار ؟ »

فلم يُجِبْنِي ، بل كان منهما ينظرُ في السماء مدققاً . . .
وبعد لحظة قال :

« أبشِروا ، فقد جاءنا الفَرَجُ ! »

وما كاد يتم قوله ، حتى بدأت الحُلُكَةُ تَنفَقِشُ ،
وأنبعث ضوء أحمرُّ في جوانب السماء . وجلسنا على الصخور ونحن
نُراقِبُ هذا الضوء الجميل يَغْبِثُ بالليل ويداعبه ، مُسْتَرِفا خطاه
في خِفَّةٍ . ولَسَبْنَا كذلك ، وعيوننا متطلعةٌ إلى السماء ،
لا تتفوه بكلمة ، ماخوذِينَ بروعة الطبيعة ، منتظرِينَ بُزُوغَ ذلك
الساحِرِ العظيم !

« وكنا لا نسمع في ذلك الصمت الرازح ، إلا صوتَ الهواء
المحتبسِ في الوادى ، فكأنه أنينُ شاكٍ أو أسير . . . حتى
البُخَلَّتَانِ لقد اشتركتا معنا في الإصغاء والسكون ، فلم تَصُدُرْ

منهما حركة أو شحيجٌ ، بل وقفنا جامدتين كأنهما تحت تأثير
قوة مغنطيسية .

وأخيراً ظهر القمر يَغْبُرُ قَسَمَ الجبال في جلال وانتصار ،
يسبح في هدوء غريب ، ويتسم حوله للأكوان معتزلاً بجباله
وقوته . وإذا بالوادي يَتَفَتَّحُ عن جوانبه ، ويتكشف عن
أسراره . وانتشرت منهمة غريبة تكاد تخطئها الأذن .
فهل كانت أصوات بعض الحشرات قد خرجت من جُحورها
مُرَحَّبة ؟ أم هي أصوات كائناتٍ غيرٍ منظورة جاءت تشارِكُنَا
في استقبال ضيفنا الكبير ؟

لقد شاهدتُ بزوغَ القمر كثيراً ، وأعجبتُ به كثيراً ،
ولكنني لم أره قطُّ على هذه الحالة التي رأيته عليها في ذلك
الوقت ، ولم أشعر نحوهً بذلك الشعور الذي أحسسته آنئذٍ ،
تَفَقَّضْتُ رأسي وأنا أرتعش !

ونبني صوتُ الشيخ عاد ، وهو يقول :

« هيا . . . فلنتابع المسير . »

ونهننا ، فاستأنفنا سيرنا في بطم وحدَر ، كما كنا من
قبل ، ومازلنا كذلك حتى بلغنا بطن الوادي . واختار لنا

« الشيخ عاد ، مكانا يصلح للبيت ، وأمر « مجاعص » أن
يُنْصِبَ لَنَا الخِيْمَةَ ، وَأَنْ يُرِيحَ البَغْلَةَ مِمَّا تَحْمِلُ مِنْ ثِقَلِ
الْأَمْتَةِ وَالزَّادِ .

وتطوَّعْنَا جميعاً لمساعدة « مجاعص » ، فانزَلْنَا الأَحْمَالَ عَنْ
الدَّابَةِ ، وَبَدَأْنَا نَدُقُّ الْأَوْتَادَ لِلخِيْمَةِ ، وَنَهَيْتُ مُخَادِعَنَا . وَرَأَيْتُ
« مجاعص » ، قَدْ تَرَكَ اللَّبْغَتَيْنِ الْحَبْلَ عَلَى الْغَارِبِ ، فَانْطَلَقْنَا
تَعْدُوَانِ ، وَهَمَّا تَقْفِرَانِ وَتَشْتَحِجَانِ ، أَشَدُّ مَا تَكُونَانِ
مَرَّحًا وَنَشَاطًا !

والتفتُ إِلَى « مجاعص » ، وَقُلْتُ لَهُ :
« أَلَا تَخْشَى عَلَى اللَّبْغَتَيْنِ أَنْ تَنْهَرُ بَا أَوْ تَضِلَّ الطَّرِيقَ ؟ »
فَضَحَكَ ضَحْكَةً عَرِيضَةً ، وَقَالَ :

« أَنْتِ لَا تَعْرِفِ طِبَائِعَ هَذَا الْحَيَوَانِ ، إِنَّهُ تَضْرِبُ الْمَثَلَ فِي
ظُلُوفِهِ وَقُوَّةِ الْغَرِيزَةِ . . . وَلَوْ ضَلَّكُنَا نَحْنُ طَرِيقَنَا ، لَمَا وَجَدْنَا
خَيْرًا مِنْهُ دَلِيلًا يَرْتَادُ لَنَا السَّبِيلَ إِلَى الْإِيَابِ . عَلَى أَنْكُمْ مَا دُمْتُمْ
مَعِي ، لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَيْءٍ . أَنَا ابْنُ الْجَبَلِ ، لَقَدْ رُبِّيتُ
فِي أَحْضَانِهِ ، وَكَبُرْتُ بَيْنَ وَدْيَانِهِ وَقِمَمِهِ . أَعْرِفُ صَخُورَهُ
حَجَرًا حَجَرًا ، وَعَيُونَهُ نَبْعًا نَبْعًا ! »

وَنَدِمْتُ عَلَى تَهْدِي السَّيْلِ لثَرْتِهِ ، بِجَاعِصٍ ، وَانْهَمَكْتُ
فِي عَمَلِي أَضْرِبُ وَتِدَ الْخِيْمَةِ بِحَجَرٍ كَبِيرٍ ، وَأَنَا أَدْعُو : مَسْ
إِيْقَانَسْ ، فِي صَوْتٍ عَالٍ أَنْ تَحْذَوْا وَحَذَوْي .

وَأَنْسَمَمُنَا تَهِيَّةَ الْمَكَانِ فِي وَقْتٍ قَلِيلٍ ، وَجَلَسْنَا أَمَامَ الْخِيْمَةِ
تَتَأَمَّلُ النَّارَ الَّتِي أَشْعَلْنَاهَا لِلتَّدْفِئَةِ وَإِنْصَاجِ الطَّعَامِ . وَبَدَأَ
« الشَّيْخُ عَادَ » يَحْدِثُنَا حَدِيثَهُ الطَّرِيفَ .

وَالْتَفَتُّ نَحْوَ صَدِيقِي . وَقُلْتُ لَهُمَا :

لَنْ أُنَامَ اللَّيْلَةَ فِي الْخِيْمَةِ . إِنْ الْقَمَرَ يَعْزِرُنِي بِأَنْ أَقْرُبَ
الْأَرْضَ تَحْتَ ضِيَائِهِ . يَكْفِينِي أَنْ أَخْذَ مَعِيَ غِطَاءً وَاحِدًا
أَتَدَكَّرُ بِهِ !

فَأَقْرَأَنِي عَلَى رَأْيِي ، فَقُمْتُ لِأَخْذِ الْغِطَاءِ مِنَ الْخِيْمَةِ ، فَلَمَّا
صُرْتُ فِي دَاخِلِهَا ، سَمِعْتُ « مَسْ إِيْقَانَسْ » وَ« الشَّيْخُ عَادَ » يَطْلُبَانِ
مَعِيَ أَنْ آتِيَ لِهَمَا بِغِطَايَهُمَا أَيْضًا ، فَحَمَلْتُ لِهَمَا مَا أَرَادَا .

وَمَضَيْتُ أَلْفُ نَفْسِي بِغِطَائِي ، وَتَمَدَّدْتُ عَلَى الْأَرْضِ
وَوَجْهِي نَحْوَ الْقَمَرِ ، أُرِيدُ أَنْ أَشْبَعَ نَظْرِي بِنُورِهِ اللَّائِلَاءِ .
وَجَعَلْتُ أَصْنِفُ إِلَى حَدِيثِ « الشَّيْخِ عَادَ » وَمَا عَسَمْتُ أَنْ
غَشِيَنِي النَّعَاسُ !

... وفتحتُ عيني ، فطالعتُ أشعة الشمس ، وهي تطبع
على جبين الكون قبلَ الصُّباح . فالتفتُ حولي ، فوقع بصرى
على « مس إيفانس » ، وهي متمددةٌ على باب الخيمة . فقصدتُ
ناليها ، وجلستُ بالقُرْبِ من رأسها أتأملُها .
وأحسستُ بغتةً رَجْفَةً تسرى في جسدى ، فهل كانت من
خسمة باردة هبَّتْ على وجهى ؟ أم كان مرَجْعُها شيئاً آخرَ
لا أعرفه ؟

وتحركتُ « مس إيفانس » ، وبدأتُ أهدأُها تحتلج ، ثم
فتحتُ عينيها فى تَلْثِينٍ وتمهل ، فما إن رأيتُنى حتى قالت فى شيء
من الانزعاج :
ماذا ؟

— جئتُ لأوقظَكَ !

فابتسمتُ ، وهي تقول :

« أشكرُك ... »

وقامتُ متباطئةً ، وهي تجمعُ غطاءها ، وتُسَوِّى ملابسها
ثم قالت :

« شاهدتُ رؤيا غريبة . . . رأيتُنى على ظهر باخرة تمخرُ
المحيطَ الشمالى » ، وإذا بجبل من الثلج قد ظهر لنا ، فدهمستُنا

موجة بردٍ عاصف ، كادت تضرِفنا عن الخطر المُلم الذي
يهددنا . . .

وابتسمت ابتسامةً بهيجة !

واستيقظ « الشيخ عاد » على حديثنا ، فقام نشيطاً على
وجهه بشاشة . . .

وسرعانَ ما أقبل « مجاعص » وهو يتثائب ، ويضرب الهواءَ
بذراعينه . . .

وقمنا نسير .

ولما رأى « الشيخ عاد » إصرارنا على التَّرجُّل ، وعلى ترك
البغلة لا يركبها أحد ، أمر « مجاعص » أن يقسمَ الأحمالَ بين
البغلتين .

وسرنا نُصعدُ في سفح الجبل ، وكان الطريق طويلاً على
وعُورته ، ولكننا قطعناه منشرحةً صدورنا نَتَقَنَّى . ولم نشأ
أن نجلسَ لنستريح ونطعم ، بل تناولنا غداءنا ونحن سائرون .
فقد امتلكتنا حماسة غريبة كحماسة الجندِ الإلشداء في حوْمِ
الوَعَى . فلم نعرفَ للشَّعبِ معنى ، ولم يشغلَ فكرنا إلا شاغلُ
واحد ، هو الوصولُ إلى السِّقْمَةِ في أقرب وقتٍ مستطاع .

وقد اضطررنا أن نأكل مرتين قبل أن نصَلَ إلى غايتنا .
وما يستدعي العجب أننا لم نسأل مرة : في أى وقت نحن ؟
ولم نُخْرِجْ أحدهُ منا ساعةً للنظر فيها . وكانت خطواتنا وئيدةً
ولسكنها متزنة . وكثيراً ما دُرنا حولَ أما كنْ نبُحِث فيها عن خير
طريق نسلُكه .

وأخيراً وصلنا ، وإذا بالشمس تميل للغروب ، ووقفنا على
القِمة ، فألفيناها قمةً عظيمةً يَكُلُّ الطَّرْفُ عن إدراكِ منتهائها .
ولبثنا مَلِيحاً ، نريد أن نتبين : في أىِّ جهةٍ نحن منها ؟ وأن نمتعَ
النظرَ بِخِلَابَةِ الطبيعة من حولنا . ولكن الهواءَ كان شديداً
قاسياً يَهْبُ علينا في إلحاح ، فكأنه يريد أن يحملنا على ساعديه
الجبارين ، ويُلْقِي بنا على الصخور في مساربِ الهاوية ، عقاباً لنا
على اقتحامِ مملكته النائية . ورأينا في عرضِ القمة بعضَ
الفَجَوَات ، فقصدنا إلى إحدها ، وحططنا رحالنا فيها . وبدأ
« بجاعص » يُجَهِّزُ لنا القهوة ، ويملأ لنا « الغلايين » بالطباق .
وجلسْتُ مترَبِّعاً ، وأنا مستندٌ بظهري إلى صخرة خَشْنة .
وبدأت أشربُ القهوة وأدخن « الغليون » مُتَمَسِّمِ العَيْنين ،
مستمتعاً براحة لم أذُقْ في حياتي أطيبَ منها .

القد كان علينا أن نسير على هذه القمة المستطيلة بصخورها
اللائنة ومن القها المهلكة، نتسلع إلى الوادي الآخر — ذلك
المكان المجهول المفعم بالأسرار — نكشف فيه موضع القصر،
فهو قائم هناك في تخبئه السحري، يستخر من الإنسان
والزمن معاً.

وأضينا ليلتنا في الفجوة، بعد أن غطيناها بالخيمة،
والتحنا الأغطية الغليظة، وأشعلنا النار طول الليل. وعند
الصباح واصلنا مسيرنا، بعد أن أخرج كل منا منظاره
المكبر. وكنا كلها سرنا بضع خطوات توقفتنا لحظة، وأخذنا
نتسلع إلى الوادي مدققين فاحصين. وطللنا نمش في حذر
أي حذر، لكثرة ما يعترضنا من عقبات الطريق في كل خطوة،
وما نراه من المهاوي التي تحف بنا من كل جانب. ولم يكن
الهواء يعفينا من عبثه بنا، ودفعه لنا، وجذب به إيانا هنا
وهناك... وقد تمر علينا سحابة من السحب، فتلقنا في
بخارها الرطب تسد علينا مذهب الطريق، وإذا بكل شيء
يستخفي، فنقف تبادل النكات الفكاهية، حتى تنقش السحابة
الراحلة... وكان يخيل لي في مسيرى أن حذائي قد تمزق إرباً
إرباً، وأن قدمي قد بدأتا تلسان الصخر وتدمايان.

أَمْضِينَا يَوْمًا كُلَّهُ جَهْدًا وَإِعْيَاءً ، وَلَكِنَّا لَمْ نَعْشُرْ فِيهِ عَلَى شَيْءٍ . وَإِذَا بِالْقَمَةِ تَسْطِيلَ أَمَانًا أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلِ ، وَإِذَا بِنَا أَمَامَ مَجْهُودٍ جَبَّارٍ عَلَيْنَا أَنْ تُتِمَّهِ فِي صَبْرٍ وَجَلْدٍ !
وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ ازْدَادَ تَوَعُّرُ الطَّرِيقِ ، وَوَقَفْنَا حَيَارَى أَمَامَ مَعْجَزٍ لَيْسَ مِنْ سَبِيلٍ لِمَوَاصِلَةِ السَّيْرِ عَلَى غَيْرِهِ ... فَقَالَتْ :
« مَسْ إِيقَانَسْ » :

« أَذْكَرُ أَنَّ الرَّاعِيَّ الَّذِي اشْتَرَكَ فِي بَعْثَةِ الْكَشْفِ الْأَوَّلِيِّ ، قَدْ حَدَّثَنِي فِي شَأْنِ هَذَا الْمَرْءِ » ،

فَأَجَابَهَا « الشَّيْخُ عَاد » :

« أَمَّا بَكْدَةُ أَنْ حَدِيثَهُ يَعْنِي هَذَا الْمَرْءُ نَفْسَهُ ؟ إِنْ كَثِيرًا مِنَ الْمَرْءَاتِ الْخَطِرَةِ يَمْلَأُ هَذِهِ الْمِنْطَقَةَ .
فَهَمَّهَمَّتْ : « مَسْ إِيقَانَسْ » :

« لَا أَدْرِي عَلَى وَجْهِ التَّحْقِيقِ . »

وَجَعَلَ « الشَّيْخُ عَاد » يَنْظُرُ إِلَى الْمَرْءِ بَعَيْنِهِ الْفَاحِصَةِ ، ثُمَّ يُنْسَقِلُ بِصَرِهِ فِي الْبَغْلَتَيْنِ . وَأَطَالَ التَّفَكِيرَ ، ثُمَّ قَالَ :
« لَا حِيلَةَ لَنَا يَا رَفَاقِي فِي اصْطِحَابِ الدَّابَّتَيْنِ !
فَتَقَدَّمَ « مَجَاعِصُ » وَانْدَفَعَ يَقُولُ :

— ٧٤ —

« إن هلاكهما محقق ! »

فقال « الشيخ عاد » :

وماذا ترتبي أن نفعل ؟

— أرى أن تتركوهما في عهدتي ، فأتكفل لكم بإعادتهما
صالمتين إلى مقرهما .

فنظرتُ إلى « الشيخ عاد » و « مس إيفانس » ونظرا إلى .

وابتسم « الشيخ عاد » لـ « مجاعص » وهو يقول :

« كلا . . . لا نحب أن نموت وحدهما . . . تشجع »

وتعال معنا ! »

فاهتز شارب « مجاعص » وتغصن وجهه ، وقال :

« ماذا ؟ أخطرُ بيا لكم أنني أتردد . . . لولا أنني مشفق

على هاتين البغلتين . . . »

فقال « الشيخ عاد » :

« اتركِ البغلتين وشأنهما . إنهما لا تعدمان مرعى ، وهما في

خير حاجة إلى دليل ! »

فقال « مجاعص » وهو يزفرُ :

« هذا ما أقوله وأكرره ، ولكنني ظننتكم على رأي غير رأيي ! »

واخترنا من أحمال البغلين ما هو ضروري لنا ، فوزعناه .
علينا نحن الرجال ، وبدأنا نجتاز الممر ، يستعين بعضنا ببعض .
بعد أن شددنا أوساطنا بالحبال . ونجحنا في عبوره ، واتضحت
لنا صعوبة مهمتنا في أقصى مظاهرها . ولكن كلما عظمت
الصعاب وكثرت ، قوىّت عزائمنا ، وتجدد نشاطنا ، واشتدت
رغبتنا في اكتشاف ذلك الأثر العجيب ...

وأمضينا يومين معاً نجوب القِصّة ، وقد تغيرت بنا الحال
من سير على الصخور وحافات المهاوى ، إلى جُهدٍ شاقٍ في
تَسَنُّم الجبال واقتحام معابرها المخوفة ...

والقصر ؟ أين هو ؟ لم ترَ منه أثراً بعدُ ... أتكُونُ القصةُ
خرافة ؟ وتكُونُ الحيةُ نصيبنا ؟

وبعد يومين آخرين ، تملك قلبي اليأسُ ، فنظرت إلى
« مس إيفانس ، نظرة تحمل ما أكنُّ من معنى ، دون أن
أتكلم ... فأدركتُ ما يحولُ بخاطري ، ووقفتُ أمامي .

وقفه كبرياء وتجلد. وقالت وحدقتها تلعبان في وهج الشمس :
 « القصر موجود ، وسنهدى إليه حتماً ،
 ومرّ بعد ذلك يومان أيضاً ، وأوشك الزاد أن ينفد ، على
 الرغم من تقنيننا فيما نأكل منه . واعتري « مجاعص » وجوم
 غريب ، وغشيته كآبة صماء ، ولم يعد يُسمعنا مبالغاته
 المستفيضة في وصف شجاعته ، والإدلال بخبرته . وتراخى شارباه ،
 وانحنّت قامته . وكان إذا صادفته في الطريق عقبة كؤود ،
 طمّح ببصره إلى السماء ، وصرخ من أعماق قلبه :
 « الله يخرب القصر ، ويحرق اللى بناه ! »

وبعد أن جاهدنا جهاداً مضنياً في ارتقاء إحدى القِمَمِ
 العالية جلستُ مع القوم بجوار غار صغير أستريح ، وجعلتُ
 أفكر في هذه المغامرة الغريبة التي أصرّ على إتمامها ، راضياً
 بأن أهلك في هذه البقعة المرهوبة ، وكيف يقابلُ الأهلُ
 والأصدقاء في مصرَ خبرَ فقداي ، فإذا عرفوا أين متُّ فلا
 أدري بماذا يؤوّلون ذلك الجنونَ الذي استحوذَ عليّ في البحث
 عن « قصر مسحور » في أحضان الجبال !

وحدث أن تناسلتُ منظاري ، فوضعتُه على عِشِّي مُدَاعِباً ،
وانطلقتُ أضْحَكُ من نفسي ومن حالي . فإذا به « مس إيفانس »
تقرب مني ، وتسالني :

« أوجدتُ شيئاً ؟ »

فقلتُ لها هازلاً :

« طبعاً . وجدتُ قصرَك المُنِيفَ ! »

ووقع بصرى في تلك اللحظة على مكان في سَفْنَحِ الجبل ،
لا يختلف عن غيره إلا في بعض كُجُواتٍ على سطحه . وكشَعَرْتُ
برجفة تَمَشُّي في جسدي ، وكانت « مس إيفانس » ، بلا منظار ،
إذ كان قد تحطم على الصخورِ صباحَ اليوم . فدفعتُ إليها منظاري .
وقلتُ لها :

« انظري ، انظري ! »

فأخذته وجعلتُ تستشرفُ المكانَ ، ثم سمعتها تصرخُ بمناديةٍ
« الشيخَ عاد » ، وأشارت إلى الموقع ، فأخرجَ منظاره ، وبدأ
يفحصه بمجامع عينه ، ثم سمعته يُغمغمُ :
« أيمكن هذا ؟ أيمكن ؟ »

ثم التفتَ بعضنا إلى بعضٍ صامتين ، والخيرة تلبعُ بها عيوننا !

— ٧٨ —

وأخيراً قالت « من إيفانس » :

« إن منظره ينطبق على مالدينا من معلومات ، كهلوا ...
 إن المسافة بيننا وبينه لا تقِلُّ عن نصف يوم ... »
 وتورد وجهها ، وأمسكت يدي ، وهزتها في حماس !
 والتفت إلينا « مجاعص » وهو فاغر فاه ، وقال :
 « أين (المدعوق) القصر ؟ أين ؟ إني لا أرى شيئاً ... »
 فناولته المنظار ، وأشرت إلى الفجوات ، قائلاً له :
 « هنالك ... انظر ! »

وجعل يُجملُ بصره وقتاً في الجهة التي عينتها له ، ثم أعاد
 إلى المنظار في يأس ، وهو يُدَمِّمُ :
 « الجنون فنون يا سيدي ! »

وعدنا نسير ، فإذا بنا نقفز قفزاً ، ويحثُّ بعضنا بعضاً على
 السرعة ، إلا « مجاعص » ، فلقد كان يجرى خلفنا كما يتبعُ
 الكلبُ صاحبه ، عليه أن يُطِيعَ ، وليس له أن يفهم إلى
 أين يساق !

... وبعد أن قطعنا شوطاً فسيحاً ، وقفنا نستوضح المكان
 في تشوُّفٍ ، وقلت له « لشيخ عاد » :

— ٧٩ —

« مارأيك ؟ أَتَظُنُّ ؟ ... »

فأجاني وهو يتسم ابتسامته الهادئة :

« أظن أن الطبيعة ليست هي وحدها التي نَحَتَّتْ هذه

الفجوات ! »

وسرنا ، فبلغنا أكثر من نصف المسافة ، وكنت أضع منظاري على عيني بين فترةٍ وأخرى ، فتبدو هذه الفجوات وقد اتخذت أشكالَ عيونٍ خيفة . وخُيِّلَ إليَّ أني أسمعها تسائل نفسها في غضب : ماسرُّ وجودنا في هذا المكان ؟

ولاحظتُ في أثناء السير أن قدَّمي كانتا تسوَّخان في الأرض شيئاً ما . . . فَوَقَفْتُ الرَّكْبَ ، وقلت لـ « مس إيفانس » :
« والشيخ عاد » :

« إن طبيعة الأرض قد تغيرت . فقد أصبحت أشدَّ ليئاً بما مضى . مارأيكما ؟ »

وما كنت أتمُّ جملتي ، حتى سمعنا صُراخاً حاداً قد تعالى في الجوّ فجأة ، مصحوباً بدويٍّ مكتوم . فالتفتنا خلفنا مذعورين ، فإذا بقطعةٍ من الجبل تنهار مثيرةً معها غباراً أزرق كالحما ، وانتشر الغبار حولنا فجأة ، فسدَّ دوتنا المسالك . فوقفنا حيث كنّا ، وقد

تماسكنا بشدة ، منتظرين بين فينة وأخرى قضاء الله فينا .
وشعرتُ باختناق ، واندفعنا نَسْعُلُ ، فكأننا نَلْفِظُ أُخْرَيَاتِ
أَنفَاسِنَا . . .

وانقطع دَوِيُّ الانهيار ، ولكنَّ صُراخَ الاستغاثة كان
يتعالى في الحين بعد الحين ، تتجاوب بصداه الحزين اليأس أكنافُ
الجلبل . . . وسمعتُ « الشيخ عاد ، يَهْمِسُ :
« المسكين ! »

وبدأ الغبار ينقشع ، فكأننا خرجنا من الجحيم ، وهبتُ
علينا رِيحٌ قوية من الشمال ، فأخذت تطارد فلولَ ذلك الغبار .
ورأينا الوادى يعود إلى هيئته الأصلية تحت أشعة القمر الواهنة .
وانثنى « الشيخ عاد ، يُحِدُّ نظره فيما تحت أقدامنا من المهاوى .
وسمعنا صوتاً جديساً ، يقول :

« الحقونى . . . فى عرضكم أنقذونى . . . الجبل كله رازح
فوق صدرى . . . لا تتركونى ! »

وأخذنا نتشاور : أنترك المسكين يقضى تحت الركام ، أم نخفُّ
إليه محاولين إنقاذه ، وفى ذلك تعريضنا لأشدَّ الأخطار ؟
ولم يمض وقت طويل ، حتى رأيتُ « الشيخ عاد ، قد خلع
كوفيته وصداره ، وأخذ يتمنطق بالجلبل ، وهو يقول :

« سأنزل وحدي ، وعليكما إِدْلاءُ الحبل ومراقبتى . . . »
ونظرنا إليه فى وَجَل ، وقد مضى لم يَنْبِسْ بحرف ، وبدأ
يهبط . . .

وانهمكتُ و« مس إيفانس » فى عملنا نراقب الرجل ،
ممسكينَ بالحبل ، متيقِّظينَ للمفاجآت . وكان « الشيخ عاد ،
يَنْقُلُ خُطاه فى مهارةٍ وحَذَقٍ ، فعَجِبْنَا له يُحَسِّنُ ذلكَ على
الرغم من بدائته ، فكأنه (بهوان) حاذِقٌ من يَغْرَضون أَلَاعِيهم
على المسارح .

وعمَّ الوادى الصمتُ العميق ، فلم نكن نسمعُ إلا خَفَقَ
خطوات الشيخ ، وهى تَفْسَحُ لها طريقاً بين مدارج الصخور .
وخَيْلَ إلىَّ انى سمعت صوتاً غريباً يشبه الهمهمة ، فالتفتُ إلى
« مس إيفانس » أسألتها بنظري ، فقالت خافتةً الصوت :

« أَيْكون صغيرَ الرياح على القِمة ، أم . . . ؟ »

وتشبَّثتُ بى . . .

فأردت أن أرفعَ إلى القِمة بصرى ، ولكننى لم أَجْسُر .
ووصلَ « الشيخ عَاد » الى مكان « مجاعص » ، وطَفِقَ يرفع
الحجارة ، وكانت مهمةٌ غيرَ شاقَّةٍ ، فبدأ على الفور رأس

« مجاعص » ، ثم ظهر جسمه الفحل . وما إن رأى الشيخ
أمامه ، حتى هوى على يديه يقبلهما ويُسندُهما بدموعه ،
وهو يردد :

« في عرضك ، ياعلم ، لا تتركني . ولَسْعُد من حيث أتينا ! »
فقاطعه الشيخ في همس :

« صمتاً . . . لا تُغلِ صوتك ! »

فألقي « مجاعص » ، بوجهه في صدر الشيخ ، كما يحتضن الطفل
في صدر أبيه . وتركه « الشيخ عاد » حتى عاوده بعض الهدوء ،
فقال له :

« إن أمامك مُرتَقٍ صَغْباً ، عليك أن تَغْلُوهُ ، ولكن خبرني :
(أَجْرِيحُ أَنْتَ ؟

— جسمي كله يشخَبُ دماً ، وقد تحطمت عظام رأسي !
فتفحصه الشيخ على عَجَل ، ثم قال :

« من حسن حظك أنك انزلت على أرض لينة . . . أما
هذه الجروح فليست بذات بال ! »

ثم أخرج من صدره زجاجة صغيرة ، وأمر « مجاعص » ،
أن يشرب ما فيها ، فأذعن للأمر ، وأفرغها دفعة واحدة في
جوفه ، وقال « الشيخ عاد » :

«والآن هَيَّا . . .

— إلى أين !

— إلى فوق ، حيث ينتظرنا صاحبانا . . .

وأخذا يصعدان في المرتني العسير : الشيخ من أمام ،
«وبجاءص ، من خلفه ، يتبَّعُه كِظْلُه ، وهو قابض على طَرَفِ
الحبل . وانتظرنا طويلا ، حتى وصلا . فما إن دنا «بجاءص ،
منا ، حتى رأيناه قد تساقط على الأرض فاقدَ الحركة ، فأسرعنا
نُسْعِفُه . أما «الشيخ عاد ، فوقف يَسْهَج ، وهو يمسحُ عن
وجهه العرق .

وبعد هنيهة رأيت الشيخ يتلَفَّتُ حوله ، فوق اختياره على
شِبْه جُحْر ، فأصدر أمرَه أن نذهبَ إليه . وكان الظلامُ قد
عَشِيْنَا شيئا ، فدخلنا الجُحْرَ كأننا قطع من الحيوان يأوى
إلى حظيرته . . . واختار كلُّنا مكانَه . وجلست «مس إيفانس ،
على مقربة مني ، وهينس «الشيخ عاد ، :

سنقضي ليلتنا هنا . . .

وتألبت علينا الظُّلُمَةُ ، ولفتنا صمت مرهوب . وازدادت
للحلكة ، حتى لم يعد يرى أحدنا من حوله . وطال صمتنا .

وخَيْبِلَ إِلَى أَنَّى وَحِيدٌ فِي هَذِهِ الْمَغَارَةِ الْمُنْقَطِعَةِ ، وَتَطَايُرُ مِنْهُ
رَأْسَى كُلُّ مَا عَقَلْتُهُ وَفَهِمْتُهُ مِنَ الْبَرَاهِينِ الَّتِي تَنْقِي وَجُودَ
السَّحَرِ وَالْخُرَافَاتِ . وَحَاصِرَتْنِي الْهُوَاجِسُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ ،
وَامْتَلَأَ رَأْسِي بِمَنَاطِرِ صَبْيَانِيَّةٍ مُزِجَةٍ . فَجَعَلْتُ أَفْكُرُ فِي
أَجْنَاسِ الْمَخْلُوقَاتِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي تَسْكُنُ هَذِهِ الشُّعَابَ ، وَمَا أَعَدَّتْهُ
لَنَا مِنَ أَلْوَانِ الْفَتِكَ وَالْإِيذَاءِ . . .

وَتَحَرَّكَتُ فِي مَقْعَدِي ، وَسَعَلْتُ ، فَجَاوَبَنِي سُعَالُ الصَّحَابِ .
وَأَحْسَسْتُ يَدَ «مَسِ إِيْقَانَسِ» تَسْلَسُ يَدِي ، فَأَخَذَتْهَا فِي رَاحَتِي .
وَأَطْبَقْتُ عَلَيْهَا أَنَامِلِي . . . ثُمَّ رَأَيْنَا الْمَأْوَى وَقَدْ بَدَأَتْ تَتِيرُهُ أَشْعَةُ
الْقَمَرِ ، فَتَنَهَدْتُ طَوِيلًا ، وَطُفْتُ بُعِينِي ، فَأَلْفَيْتُ «مَسِ إِيْقَانَسِ»
مَنْكَشَةً بِجَوَارِي ، تَدُورُ بِرَأْسِهَا الدَّقِيقِ حَوْلَهَا ، وَعَيْنَاهَا لَامِعَتَانِ
كَمَا تَلْبَعُ الْمَاسَّةُ الْمَصْقُولَةَ . «وَالشَّيْخُ عَادَ ، يَنْظُرُ أَمَامَهُ نَظْرًا
تَائِهًا ، مُسْتَرْسِلًا فِي أَحْلَامِهِ . أَمَّا «بِجَاعِصُ» فَقَدْ كَوَّمَتْ نَفْسَهُ
وَرَاحَ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ !

وَطَالَ صَمْتُنَا ، وَرَأَيْتُ فَصَّيَ الْمَاسِ ، وَقَدْ بَدَأَ يَدِبُّ إِلَيْهِمَا
الْفَتُورُ . وَمَالَ الرَّأْسُ الدَّقِيقُ عَلَى كَتِفِي فَتَوَسَّدَهُ . وَغَلَفَتْ
الْقَمَرُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ سَحَابَةً كَثِيفَةً أَعَادَتْ الظِّلَّةَ إِلَى الْمَأْوَى . . .

ورفعتُ يَدَ «مس إيفانس» إلى فمي في تباطؤ وتراخ...
 حَمَّ أغمضت عيني، وجعلت أستقبلُ أحلامِي المؤنَّسةَ في ذلك
 الوكرِ الموحش، الذي تريبض الشياطينُ حوله، ويكشرُ فيه
 الموتُ عن أنيابه!

وأيقظناهُ الشيخُ عاد، قبيلَ الفجر، وهو يقول:
 «هيا يا صحابي... نريدُ دخولَ القصرِ قبلَ عودِ الظلامِ.
 هولا ندرى ماذا ينتظرُنا من مفاجآتِ الطريقِ!»

٣

وتناولنا طعامنا المتواضع على كَجَل ، وأخذنا نسير . وكنا نمشي ببطء كَحَذَرِينَ ، نخشى انخساف الأرض تحتنا . ولكننا قد مُنْضَطِرُّونَ — طوعاً لمشورة « الشيخ عاد » — أن نجتاز بعض الأماكن وثباً وعدواً . وقد نختار طريقاً يلوح لنا أنه بالغٌ بنا الغاية ، فنقطع فيه شوطاً فسيحاً ، ثم يتضح لنا أنه طريق عسر ، فنرجع على أعقابنا ، وتتوخى طريقاً سواه .

وكذلك لم تهدأ لنا حركة ، حتى أوفت الساعة على الثانية . بعد الظهر ، جُلسنا لتناول بعض اللحم القديد ، وننعم بقسط من الراحة . ثم قمنا بعد قليل نتابع السير .

وكنا كلما اقتربنا من القصر ، اتسعت كَفْوَاته ، وازدادت ظلاماً . وأشارت إلى فجوة أكثر اتساعاً من غيرها . وقلت :

« ألا يكون هذا موضع الباب ؟ »

فأجابني « الشيخ عاد » :

« يلوح لي ذلك . . . »

واتجهنا في سيرنا نحو تلك الفجوة ، وكان علينا أن نصعدَ
إليها في طريقٍ خيّلَ إلى أن أحداً من قبلنا لم يسلكه .
والحق أنه لم يكن طريقاً بالمعنى المألوف ، فلقد كنا نسير في
مكانٍ وعُرْذى سطحٍ منحدرٍ مختلفِ التواء ، حجره أملسٌ ،
ينزلق عليه الحذاء انزلاقه على رغوات الصابون ، فكلاً خطونا
خطوةً مَهْدِنَا المكان لمواقع أقدامنا . وكان عملاً شاقاً مضنياً ،
يبد أننا جاهدنا فيه جهادَ المستميت . وكنا صامتين لا يُسمَعُ
لنا إلا خفقُ الأقدام وهي تضرب في الصخر العنيد ، وإلا
زفراتٌ مجاعصٌ ، وأنيبٌ . . . فنال التعب مني كلَّ
منال ، حتى قام في يقيني أنني سأهوي حتماً ، وأن مشواي لا بدَّ
بطنُ الوادى !

وفي النهاية وصلنا ، فإذا نحن أمامَ قُوْهة كقُوْهة المغاور .
لا تستطيع العينُ اقتحامَ ظلمتها .
واستندنا إلى الجنادل ، مَبْهُورِي الأنفاس . ورأيتُ الشيخَ
عاداً يتهاى لدخول القُوْهة ، فصرختُ :
« سنأتى معك . . . تمهل ! »
فالتفت إلى ، وقال :

— ٨٨ —

« كلا... انتظروا ، فلن أغيبَ طويلا ،
وتساورى شَبَحُهُ في الظلام ... وأسرعْتُ دقاتُ قلبي ...
وعاد الشيخ يقول :
إن المكانَ مسدودٌ ، لا منفذَ له .
— إذأ... —

— هبّا إلى الفَوهة الثانية .
واستأنفنا سيرَنا كما كنا على الصخور الناتئة المُلسِ ،
هو استبدّ بي ضيقٌ شديدٌ ، وهبتُ في نفسى ثورة صامتة ، أتساءلُ :
إهالى ولهذا المغامرة الحمقاء ؟

ووقفنا لنستريح ، فاستندنا ظهورَنا إلى الحجارة المسنونة
الألأطراف . وأطبقتُ جفنيّ ، وشعرتُ بأن المتاعب تطحن
مجسمي طحناً . ألا يمكنني أن أختلسَ بضعَ لحظات أستمتع
بقيها بنوم خاطف ؟ أراهن السكون كله على أنني أستطيعُ أن
الأنام واقفاً ، مُسنداً رأسي إلى رماح الصخور ، وتحت قدمي
هذه الهوةُ السحيقة ... ومن ينعني من ذلك ؟ فَلَافَعَلْ .
وسرعان ما سمعتُ صوتَ الشيخ عاد ، يقول :
« هَلُّسُوا ! »

ففتحت عيني حانقا ، واستسلمت للبقاير . وواصلنا السير ،
وبعد لائي بلغنا الفوهة ، فدخلنا فيها ، وتقدمنا الشيخ ،
فرايته قد أخرج شمعة من جيبه فأشعلها ، ومشى محاذرا وقد
حنى هامته ، وانكمش متلصصا ، كانه مقدم على جريمة . فشينا
على أثره منكمشين كذلك . وأخرجت مسدسي ، وقد أرهفت
أذني لأضعف حركة . واتضح لي أننا نسير في دهليز رطب ،
منقور في قلب الجبل . ولم يفه أحدنا بكلمة . وبدأ الدهليز
يلتوى بعد أن كان مستقيما ، وطال سيرنا والطريق ما يزال في
التواء وإظلامه . ثم رأينا يتسع شيئا ويستدير . وأخيرا ظهر
أمامنا منفذ يغمره وضح النهار ، وغممت قائلا :

« لقد وصلنا إلى داخل القصر . فلنستعد ! »

وسرنا حتى انتهينا إلى المنفذ ، فإذا بنا نطيل على الوادي
الذي تركناه خلفنا ، وإذا الفوهة التي ظنناها غاية المرحلة ،
هي بعينها الفوهة التي دخلنا منها !

والتفت بعضنا إلى بعض متسائلين . . . ورأينا مجاعص
يجلس على الأرض .، وقد انفجر في ضحكة طويلة ، ثم قال :
« حقا لقد وصلنا ! »

فأجابه « الشيخ عاد ، فى حزم وعزم :

« سنصل أيها الغبيّ ، وسترى ... »

وجلسنا على رأس المدخل فترة ، ثم قمنا نستكشف
الفوهة الثالثة ، فوجدناها بلا منفذ ، ولكنها كانت فسيحة
كأنها قاعة لا يُغورُها إلا الأثاث . فقال « الشيخ عاد ، وقد
تجلى اليأس فى نظرتة :

« هنا سنمضى الليلة ! »

وتجهّس وجه « مس إيفانس » ولم تشطّق بكلمة ، وأخذنا
نعيدُ المخادع . وبعد قليل أطفأ « الشيخ عاد ، الشمعة .

وبينما أنا قد غلبنى النوم ، إذ شعرتُ يدي تهزُّنى بلطف ،
وإذ بى أمام « الشيخ عاد ، ، فبادرته بقولى :
ماذا هناك ؟ أخطرتُ أخذق بنا ؟

— كلا . ولكن يلوح لى أنى عرفت الباب ..

— الباب ؟

— تعالَ معى !

ونفضتُ بقايا النوم عن عينيّ ، وقمتُ معه ، فقادنى إلى
الركن الأيمن من الحجرة ، وأشار إلى صخرة من الحائط ، وقال :
« ادفعها بيدك قليلا ... »

فدفعتها ، فإذا هي تلين بعض اللّين تحت يدي . فابتسمي .
« الشيخ عاد ، وقال :

لقد قضيتُ الوقتَ منذ أخذكم النوم وأنا أخص عن جدار .
المغارة ، حتى عثرتُ على هذه الصخرة ، فتولاني الشكُّ في أمرها
لبروزها عن مستوى الجدار ، فأخذتُ أحفر حولها ، حتى تبين
لي أنها مستقلة ، ليست جزءاً من الحائط !

— والآن ماذا ترى ؟

— نستمُّ العملَ معاً ، حتى يتبينَ لنا صدقُ ظننا . . .

وناولني قدوماً وإزميلاً ، وأخذ مثلَّهما ، وجعلنا نعمل ،
فتعمقنا في الحفر حول الصخرة ، مجتهدين في إخراجها من مكانها .
وأيقظنا ، بجاعص ، ليساعدنا في عملنا ، ولكنه لم يفعل شيئاً
يستحقُّ الذِّكر ، بل لقد كان ثأؤُبه وتمطيه المستمرُّ يعطلنا ، حتى
خشينا أن تصل إلينا عدواه !

ولما حمى وطيسُ الدقِّ ، استيقظتُ . مس إيفانس ،
فأقبلتُ إلينا ، وفهمتُ كلَّ شيء دون أن تسألنا ، فلبع وجهها
بالبشر والارتياح !

وبعدُ جهدٍ جهيد استطعنا انتزاع الصخرة ، فظهرت كوةٌ

بخلفها سرداب ، فنظر « الشيخ عاد » منها ، ونور الشمعة الشحيح
يحضى له بعض المكان ، ثم قال :
« إنه الطريق الموصل إلى القصر ، ليس في ذلك أى ريب .
هيا يا صحابي ! »

وهمهم « مجاعص » يقول :
ولماذا لا ننتظر إلى الصباح ؟
— وهل تظن أن أشعة الشمس ستنفذ إلى هذا السرداب ،
فتغير لك الطريق ؟

— ولكن . . .

— ولكن خير البر عاجله . . . هيا !

وانحنى « الشيخ عاد » ، فدخل ، وتبعته « مس إيفانس » ، ثم
دخلت وراءهما وأنا أجر « مجاعص » من يده . . . وكان أول
ما طالعنا من هذا السرداب ، ردهة صغيرة لم يستطع نور الشمعة
أن يرينا جوانبها . وتقدم « الشيخ عاد » ، ونحن خلفه يمسك
بعضنا بعضاً ، لا تتحرك إلا معاً . . .

وسرنا على هذه الحال خطوات ، وبغته شعرنا باختلال
توازننا ، فتساقطنا ، بعضنا على بعض ، وإذا الطريق يغدو

زَلَقاً شَدِيداً التَّحَدُّرَ . وَأَحْسَسْنَا أَنْفُسَنَا نَهْبِطُ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ ،
فِي ظِلَامِ دَامَسَ ، إِلَى حَيْثُ لَا نَعْلَمُ . . . وَلَمْ يَفِهِ أَحَدُنَا بِلَفْظٍ ،
وَعَاجَلَتْنَا الْخَفَافِيشُ الْمَذْعُورَةُ تَطِيرُ مِنْ حَوْلِنَا ، وَتَضْرِبُ بِأَجْنَحَتِهَا
وَجَوْهَنَا ، فَتَطَالِي صِيَاحُنَا . . . وَمَا لَبَثْنَا أَنْ وَجَدْنَا أَنْفُسَنَا
قَدْ تَرَامَيْنَا فِي شَبَكَةٍ أَوْ نَحْوِهَا ، مَرْتَفَعَةٍ عَنِ الْأَرْضِ ، فِي بَقْعَةٍ
مَكْشُوفَةٍ !

تَمَّ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي لَحْظَاتٍ ، كَأَنَّهَا وَمَضَاتُ الْبَرْقِ ، فَلَمْ نَعِ مِنْ
أَمْرِنَا شَيْئاً . وَلَا نَدْرِي كَيْفَ عَجَزْنَا عَنْ تَسْوِقِ هَذِهِ السَّقْطَةِ ، وَتَلَاقِي
الْإِنْزِلَاقِ فِي ذَلِكَ الْمُنْحَدَرِ .

وَكَانَ نُورُ السَّحَرِ يَتَقَدَّمُ الْفَجْرَ ، وَيُؤْذِنُ الْوُجُودَ بِانْحِسَارِ اللَّيْلِ ،
فَتَبَيَّنَ لَنَا أَنَّنَا فِي شِبْهِ حَدِيقَةٍ . وَكَانَ كُلُّمَا انْجَلَى الصَّبَاحُ تَرَامَتْ
لَنَا أَغْصَانُ الشَّجَرِ ، وَحَمَلْ إِلَيْنَا النَّسِيمُ الْبَلِيلُ عِطْرَ الرِّيحِ . . .
وَتَفَحَّصَ « الشَّيْخُ عَادَ » حِبَالِ الشَّبَكَةِ ، وَقَالَ :
« فَلْنَقْطَعْهَا بِالسَّكِينِ ! »

وَبَحِثْنَا عَنْ سَكِينٍ مَعْنَا ، فَلَمْ نَوْفُقْ إِلَى شَيْءٍ يَصْلُحُ لِهَذَا الْعَمَلِ .
فَقَالَ « بِجَاعِصَ » وَهُوَ يَجْتَهِدُ فِي فَسْخِ مَحَلٍّ لَهُ بَيْنَنَا :
« إِنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْرِضَهَا بِأَسْنَانِي ! »

فقلت « مس إيفانس » :

« إذا تم ذلك أمكننا أن نقفزَ منها إلى الأرض ، في
شعر مشقة ... »

وانطلق « مجاصص » يقرض الحبال ، وما كاد يبدأ عمله ،
حتى سمعتُ « مس إيفانس » تهمس :

« انظرا إلى هذه الحيلة ... انظرا ... ألا تريان فيها
شيئاً ؟ »

فجعلت أنظر ، أنا و « الشيخ عاد » ، وهينمتُ :

« أرى عينين براقَتين ! »

وسمعنا حفيفاً خفيفاً بين الأغصان ، فقلت :

« قد يكونُ حيواناً وحشياً .. أخشى أن يهْجُمَ علينا ، ونحن
في محبستنا هذا ، فلا نستطيع منه الفكَّاك ! »

ووجدتُني أخرج الغدَّارة وأطلق عليه من فوري رصاصة ،
ولكن مَرَقَ في الوقتِ عينه نصل لاعم من ناحية الشيء
الذي توهمته وحشياً ، فكاد النَّصْلُ يمسُّ كَتِفَ « مس
إيفانس » ، ثم ارتطم في الصخر خلفنا ، وعاد فاستقرَّ في حجرٍ
« الشيخ عاد » ، ... وتداولناه في عَجَلَةٍ ننظره ، فإذا هو

— ٩٥ —

خنجِرٌ ماض ذو حدين ، له مقبض من أغصان الشجر ،
ختباد لنا النظرات مصعوقين ...

وتوارت العينان وهدأت الحركة بين أغصان الخيلة . فقلت :
« ماهذه المعميات ؟ »

فأجابني الشيخ :

« أخشى أن تكون قد أصبت آدمياً ! »

وعمرتنا صمتٌ مرهوب !

وأمسك الشيخ عاد ، بالخنجِرِ يقطع به حبال الشبكة .
ففسح لنا فيها طريقاً خلاصاً ...

٢

لم تمض فترة وجيزة ، حتى كنا نحن الأربعة على الأرض .
 نسير بخطا حذرة نحو الخيلة المقصودة . وكانت طلائع الشمس
 قد بدأت تبسط علينا أشعتها ، فبدأ لنا المكان ، وكأنه من أذغال
 الوحوش . . . فدخلنا ونحن نشق لنا طريقاً بين الأشجار
 الملتفة ، والأغصان المهدلة ، ندوس الأعواد اليابسة ، والأوراق
 الذابلة ، فيسمع لها صوت مفزع في هذا المكان الصامت !
 وأخيراً وجدنا أنفسنا أمام جسم مطروح ، فتقدمنا
 تنبئنه ، فإذا هو يقوم برأسه ، ويرسل لنا من مقلتيه وميضاً
 نارياً ، وسمعناه يردد :

« لا تمسوني . . لا تقرّبوني . . . إني أمقتكم ! »
 ووقعت عينه في هذه اللحظة على « مس إيقانس » ، فألفينا
 حدقتيه قد اتسعتا اتساعاً عجبياً ، ونظرة قد تركّز فيها . ثم
 اختلج جسمه بأسره ، وعلت وجهه ابتسامة ، وقال :
 « عجب . . . عجب . . . ! . . . ! يمكن هذا ؟ »

ثم هَوَى برأسه على الأغشاب ، وهو يحدّق في «مس»
إيفانس ، ويجمّجهم :

« صفاء . . . صفاء . . . »

وانكب « الشيخ عاد » عليه ، يتعرّف جُرْحَه ، ثم اتجه
إلينا ، وقال :

« أعطوني خرّاقاً وماء . . . »

فناولناه مامعنا من خرّاق ، ووجدت وعاءً فخّارياً بالقرب
من الرجل الجريح ، فناولت « مجاعص » إياه ، وقلت له :
« دونك الحديقة ، فابحث لنا عن ماء فيها . . . »
فغمغم يقول :

أفي هذا المكان المهجور ماء ؟

— اذهب يا غبيّ ، أتظن أن هذا الأدميّ يستطيع أن يعيش

هو وما حوله من نبات ، دون ماء ؟

فتلكأ قليلاً ، ثم أخذ الوعاء ومضى . . .

وتقدمت « مس إيفانس » من الجريح ، وقالت مخاطبةً

« الشيخ عاد » ، في رفق :

ماذا ترى في جُرْحِه ؟

— يلوح لى أن حالته لا تخلو من خطر ، إن الرصاصه
مرت بجانب الشدى الأيمن ..

فركت « مس إيقانس » بجوار الغريب ساهمة تفكر ، ثم
تساءلت :

« لماذا يدعوني : صفاء ؟ »

فقلت لها على الفور : .

« الرجل إما مخبول ، وإما محموم ! »

وعاد « مجاعص » بالوعاء ، مهلل الوجه ، يقول :

« عثرتُ على نبع ماء زلال . . . سبحان مُبدعِ

الأكوان ! »

وشرع « الشيخ عاد » يُضَمِّدُ الجرح ، ونحن ملتفتون

حوله . . .

أما الغريب فهو رجل عَبلُ الجسم ، مبسوطُ القامة ، ذو ملامح

متناسقة ، تهدل شعره على منكبيه ، واختلط في لحية الكثرة

البياضُ بالسواد . وهو مرتد ثوباً ساذجاً قصيراً مجدولاً من

ألياف الشجر . يتَمَنَّقُ بحزام ، ورأسه عارٍ ، وقدماه حافيتان .

وظلت « مس إيقانس » تحملُ الإناءَ لـ « الشيخ عاد » ، تساعده

فى عمله ، ورأيتها تُطيلُ فى الوعاءِ النظر . . . ولما استنفذ الشيخُ

— ٩٩ —

حافيه من ماء ، أدنته « مس إيفانس » من عيها نُقلبه ،
وتستوضحه بدقة . ثم ناولتني إياه ، وهى تقول :
« اقرأ ماهو مكتوب عليه ... »

فقرأتُ كلمة « صفاء » منقوشة في حافتيه من الداخل في
وضوح ، فغمغمت :

« لا أدري ما الذى يغنيه بهذا ... »

وقتُ إلى النبع ، فوجدته غير بعيد من مكاننا ، موضعه
بين الصخور ، يفيضُ ماؤه عليها ، ثم يعود فيجتمعُ في شبه
حوض ، ومن ثمَّ ينحدر في قناة تجوسُ خلال الحيلة . . .
وهناك على الصخر الأملس الذى ينبثقُ الماءُ من قلبه ، ويتسائلُ
على صفحته ، قرأتُ بخطِّ مُنمَّقٍ كلمة « صفاء » ،
فقلت هامساً :

« وهنا أيضاً ، »

وفىما أنا عائدهُ صِللتُ طريقى ، فرأيتُنى بالقربِ من
الشبكة التى كانت تحتوينى . والتقى بصرى بقطعةِ ملساءِ في
جانب الجبل ، منقوشِ عليها بخطِّ كبير ذلك الاسمُ السالف ،
وقد رسم تحتها قلبٌ بجانبه زهرة . . . فنالتنى حيرةٌ لا تخلو من

— ١٠٠ —

يضيق . وعدت إلى الشيخ عاد ، بالإناء ، وقد اندلق نصف مائة
على الأرض .

ولما فرغ الشيخ عاد ، من تضميد جراح الغريب
اختزناله مرقداً طيباً في الخيلة ، ثم مدد كاه عليه ، ووسد ثامنه
حزمة من الهشيم .

وأردنا أن نصرف عنه . فقالت « مس إيفانس » :
« أتركه وحيداً ؟ »

فقال الشيخ عاد : :

« ألم يكن وحيداً قبل أن نحضر ؟ »

— ولكنه جريح !

— لا خوف عليه . إنه لا يستيقظ قبل ساعة أو

أكثر ...

وأخذنا ستمتتنا إلى النبع ، فقمسنا وجوهنا ، ورحلنا
نهل منه حتى ارتوينا . وقرأت « مس إيفانس » كلمة « صفاء »
المنقوشة في صخرة النبع ، ولكنها لم تفتح لي حديثاً في شأنها .
وجلسنا حول الماء متباعدين في شبه حلقة ، وقد أسند بعضهم
ظهره إلى الصخور ، وبعض آخر إلى ساق الشجر .

— ١٠١ —

وَأَمَّا كُنَّا غَاشِيَةً مِنْ حَمَمٍ ، وَغَلَبَ النَّعَاسُ ، الشَّيْخَ عَادَ .
فَأُطْبِقَ جَنْبَيْهِ . أَمَّا ، مَجَاعَصُ ، فَكَانَ يَغُطُّ فِي نَوْمِهِ مِنْذُ
جُلُوسِ ، وَرَأَيْتُ رَأْسِي يَتَرَنَّخُ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ رَحِمَ فِي عَالَمِ
الْأَحْلَامِ !

وَفَتَحْتُ عَيْنَيَّ ، فَأَلْفَيْتُ ، الشَّيْخَ عَادَ ، وَ مَجَاعَصَ ،
عَلَى حَالِهِ . أَمَّا ، مَسْ إِيقَانِسُ ، فَلَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً ، فَقُمْتُ
مُدْفُوعاً بِعَامِلِ خَفْيَةٍ ، وَقَصَدْتُ عَلَى الْفُورِ خِمِيلَةَ الْجُرَيْجِ ، وَكُنْتُ
أَسِيرٌ مُتَلَصِّصاً . ثَمَّ إِنْ اقْتَرَبْتُ مِنَ الْمَكَانِ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتًا ،
خَوَّفَتْ مَخْتَبِئًا أَنْصِتَ . . . وَطُفْتُ بِبَصَرِي بَيْنَ الْأَغْصَانِ ،
فَرَأَيْتُ ، مَسْ إِيقَانِسَ ، رَاكِعَةً بِجِوَارِ الْجُرَيْجِ ، وَهُوَ آخِذٌ يَدَيْهَا
بِحَمْلِقٍ فِيهَا ، وَيَقُولُ :

« شُكْرًا لَكَ عَلَى زِيَارَتِكَ لِي بَعْدَ هَذِهِ الْغِيَةِ الطَّوِيلَةِ ! »
قَالَتْ :

« أَنْتَ الْآنَ أَحْسَنُ حَالًا ؟ »

— إِنِّي لَا أَشْعُرُ بِمَكْرُوهِ ، مَا دُمْتُ مَعِي !

— مَا دُمْتُ مَعَكَ ؟

— ١٠٢ —

— إن الرصاصة التي قد فُتِسِنِي بها كانت جزءاً عادلاً .
— ولكنني لم . . .

فقاطعها قائلاً :

« لقد جئت لتَقْتَصِّي مِنِّي . . . فالحمد لله ! »
ورفع يدها إلى فمه . وقبَّلَها قبلَ طَوِيلَةٍ حَرَّأى ، وكانت
شفتاه ترتعشان ، وعيناه نَدِيَتَنِ بالدموع . . .
ثم رأيتُه قد غاب ثانياً عَنِ الوَعْيِ ، فخرجتُ من مخبئي
ودنوت من « مس إيفانس » ، فقالت :

« إنه يحدثُني حديثاً يبعثُ على الدهشة . . . يزعم أني جئتُ
لأَقْصُرَ مِنْهُ ! »

— أما قلتُ لك إنه مخبولٌ أو محموم ؟
ولحقَ بنا الشيخ عاد ، فقلتُ له :
« لقد استيقظ الجريح ، ولفظَ بضعَ كلماتٍ محومة ، ثم
فَقَدَّ وَعْيَهُ كما كان من قبل . »

لجسَّ « الشيخ عاد » نبضه ، ثم قال :
« لا خوفَ عليه ، انزُكُوهُ ليرتاح . . . هيا بنا لنرتادِ
الحديقة ، ونستوضحَ شيئاً من القصر . »

وخرجنا من الخيلة ، فجيئنا أنحاء الحديقة ، فألفيناها قسيحة
الأرجاء ، تغمُرُها أشجارُ الفاكة ، محملةٌ بالطيبِ النجنى
من مختلف الثمار فأكلنا ما لذَّ لنا وطاب حتى بلغنا الشَّبْعَ .
ثم مررنا بأقسام من الحديقة مزروعة أصنافاً شتى من
الخضر والبقول .

وانثنينا بعد ذلك في بعض المداخل ، فعثرنا على
كوخ ، فدخلناه ، فإذا هو مسكنٌ غاية في السذاجة ، به مرقعة
مُسَوَّى من الغصون ، وغطاء مجدولٌ من لحاء الشجر ،
وأسقاطٌ يحوى بعضاً أليفاً أو ما يُشبه الألياف ، وفي
بعضها الآخر قليلٌ من البقول والثمار الجافة . . . هذا إلى عددٍ
ضئيلٍ من الأواني الفخارية ، مبعثرٍ في شتى الجوانب ، بعضه
فوق بعض .

وسمعتُ الشيخ عاد ، يقول :
« لماذا اختارَ هذا الكوخَ لنومه ؟ أليس في القصر
حجرات ؟ »

وخرجنا نمرُّ بجوار الشبكة . . . ووقفتُ « مس إيفانس »
أمام الصفحة المصقولة العريضة المسكتوب فيها اسمُ « صفاء »
تحدِّقُ طويلاً في هذا الاسم وفيما تحته من رسم القلب والزهرة .

ثم تابعت سيرها معنا. وكانت أفكنا كلاماً، وأكثرنا تفكيراً.
ولكنها كانت أشدنا اهتماماً بما يستبين لنا من معالم المكان.
وجزنا بفجواتين تشبهان المغاور، فولجنا هماً،
فلم نجد بهما شيئاً يسترعى الاهتمام. ومررتنا بالثالثة، فإذا هي
ذات سقف عالٍ، وفي ركن من أركانها مدفأة منقورة في
الصخر بها بقية من رماد، وعلى مقربة منها كتل من الخشب
المعد للحريق...

فقال الشيخ عاد، :

« أراهن على أن هذه المغارة مشتملة، فهو يقضى فيها
الليالي الزمهرير، »

فاجابت مس إيفانس، :

« بآله من شخص غريب الأطوار، »
وقلت :

« أخشى أن نكون قد كشفنا مأوى رجل من قطاع
الطريق، فربما نرى يد العدالة، »

فأجابتنى مس إيفانس، وهي تنظر إلى في عتاب :

« لا تحكم عليه يا صديقي قبل أن تعرف حقيقته، »

وبدأ الظلام يتفشى المكان، فقد أدنت الشمس بالمغرب،

— ١٠٥ —

واستترت خلف القسم العالية ...
وجعلنا نفكر: أين نبيت؟ فقال «الشيخ عاد» :
«تستطيع مس إيقانس أن تنام في السكوخ، فهو أليق
مكان بها ... أما أنت ومجايع فتبيتان هنا ...»
فقلت.

وأنت؟

— إنني أفضل العراء، وسأختار مكاناً بين الخنازل.
وقالت «مس إيقانس» :
«ومضيقنا؟ أنبيت أنه جريح؟ سأترك له السكوخ»
وسأبحث لي عن مكان آخر ...»
فقال «الشيخ عاد» :

«كلا، ياسيدتي، لن يضيره أن يمكث حيث هو ...
إنه ابن الغابة، وحليف الجبل، وقد يؤذى الانتقال جراحه
التي لم تشد مل بعد ...»

وانتصحننا بنصيحة «الشيخ عاد»، فانطلقنا نهبيئاً أمكنتنا
للنوم. وبعد أن بذلتُ جهداً لا يمكن في معاونة «مس إيقانس»
على إعداد فراشها، وتوفير أسباب الراحة لها، ذهبتُ

بـ مجاعص ، إلى الخائل نجمعُ الهشيمَ والأعشاب . ولما انتهتُ
من تهيةِ المرتقد ، نظرت إلى « مجاعص ، وقلتُ :
« مارأيك في هذا السرير الفاخر ؟ »
فأجاب ، وهو يتمطى ويتأب في تصايح :
أحلفُ لك بعمرى إن كلَّ إنسانٍ يحسُدُنا عليه ، حتى
السلطان !

واستلقى عليه ، وراح يتقلب ، وهو مازال يتأب ويتمطى .
ثم هدأت حركته ، فناديتهُ ، فلم يجبني . وبعد قليلٍ علا
شخيرُهُ ، فتركتهُ ، وخرجتُ أمامَ الساحة ، فوجدتُ
« مس إيفانس ، و« الشيخ عاد ، ينقُلانِ إلى الجريج بعضَ
الهشيم ، فذهبتُ معهما ، واستطعنا أن نعدَّ له في مكانه مرقدًا
ليتنا ، مددناه عليه في رفقٍ واحتراس ، وغطيناه بفروٍ قديمٍ
صادفناه في كوخه ، ولم نلبث أن تركناه نائمًا !

وفي الغداة استيقظتُ نشيطاً ، فقد قطعتُ ليلتي مسترسلاً
في نومٍ شديد . . . وقصدتُ من فوري حديقةَ الفاكهة .
وملأتُ سلتى بأطيب الثمار . وذهبتُ إلى الكوخ ، حيث ترقد

« من إيفانس ، ، وعلقتُ السَّلَّةَ بِالْبَابِ ، وأخذتُ سَمْتِي إِلَى
النَّبْعِ . وما كدتُ أَقْتَرِبُ مِنْهُ حَتَّى رَأَيْتُ سِتْرًا مَنْسُوجًا مِنْ
الْأَلْيَافِ يَتَدَلَّى مِنْ شَجَرَةٍ ، يَتَرَاءَى خَلْفَهُ إِنْسَانٌ شَبَهُ عَارِ
يَغْنَتْسِلِ ، وَعَلَى قَيْدِ خُطُوءَاتِ مِنَ السِّتْرِ قَبِصَ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ
الْحَسَنَاءِ فوقفتُ لِحِظَةٍ أَبْتَسِمُ فِي جَذَلِ ، وَأَنَا أَتَرَدُّ
بَيْنَ إِقْدَامِ وَإِحْجَامِ ثُمَّ عَدْتُ أُدْرِجِي إِلَى الْكُوخِ ،
وَشَغَلْتُ نَفْسِي وَقْتًا بِإِعْدَادِ الْفَاكِهَةِ لَهَا .

وبعد قليلٍ أَقْبَلْتُ وَوَجْهُهَا مَا بَرَّخَ يَقْطُرُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَشَعْرُهَا
السَّاجِي مَهْدَلٌ عَلَى أَكْتَافِهَا . فَمَا إِنْ لَمْ أَحْشِنِي حَتَّى صَاحَتْ فِي .
شَيْءٍ مِنَ التَّعَجُّبِ :

« أَأَنْتَ هُنَا ؟ »

فَقُلْتُ ، وَقَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ هُجَيَّتِهَا :

أَسَاءَ كِ قَدْ دُمِي ؟

— كَلَّا كَلَّا غَيْرَ أَنَّ الْوَقْتَ مَبْكَرٌ ، وَلَمْ أَكُنْ .

أُظُنُّ أَنَّهُ قَدْ اسْتَيْقَظَ أَحَدٌ بَعْدَ .

— كَيْفَ أَمْضَيْتِ لَيْلَتَكَ ؟

— أَرْقَةً قَلِقَةً ، تَهْفُو بِإِلْهَوَاجِسِ ؟

— ١٠٨ —

— لَشَدُّ مَا يَسُوهُنِي أَنْ أَعْرِفَ ذَلِكَ !
ووقفتُ قليلاً صامتاً ، أراقبها وهي تُجَفِّفُ وَجْهَهَا . ثم
تَأْدِنِيْتُ مِنْهَا بَعْضَ الْفَاكِهِةِ ، وَقَلْتُ :
لَقَدْ جِئْتُ لَكَ بِالْفَطْطُورِ .

— شَكَرَا يَا صَدِيقِي . . . سَأَخْتَارُ لَهُ عُشْقُوداً مِنَ الْعَنْبِ .
لِأَنَّهُ لَمْ يَطْعَمَ غَيْرَ الْمَاءِ مِنْذُ أَمْسٍ !
— الْجَرِيحُ ؟

— لَقَدْ ذَهَبْتُ إِلَيْهِ خِيْنََ صَحُوتُ ، فَإِذَا بِهِ مَا زَالَ نَائِماً .
فَرَكَبْتُهُ لَمْ أَزِجْجِهِ .

— أَنْتِ طَيِّبَةُ الْقَلْبِ يَا مَسْ إِيْقَانَسْ !
قَلْتُ ذَلِكَ فِي لَهْجَةٍ تُفْصِحُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْإِسْتِنكَارِ
وَالْتَعْجُبِ . فَنَظَرْتُ إِلَى نَظْرَةٍ فَاحِصَةٍ ، قَابَلَتْهَا بِابْتِسَامَةٍ
سَانِحَةٍ . . . وَخَرَجْتُ !

التَقِينَا بَعْدَ ذَلِكَ جَمِيعاً عَلَى بَابِ الْمَغَارَةِ . . . كُنْتُ جَالِئاً
أَفْكَرَ ، وَعَنْ كَتَبِ مَنِيَّ « مَسْ إِيْقَانَسْ » ، تُغْنِي فِي وَهْجِ
الشَّمْسِ يَتَصَفِّيفِ شَعْرَهَا وَتَجْفِيفِهِ . وَ« جَاعِصُ » مِنْهُمْ فِي قَضَمِ

— ١٠٩ —

كوز من الذرة نجح في شيبه . أما الشيخ عاد ، فكان في داخل المغارة ، ولا أدري : ماذا كان يعمل هناك ؟

وخرج بعد فترة ، متهلل الوجه ، يقول :

ألم تر الباب المؤدى إلى السرّ داب ؟

— لم أر شيئاً !

— إنه على قيدِ خطوتين من فراشك . . . تعال انظر .

ونهضت معه ، فوجدت باباً من الحجر ، لا يعدُّ كثيراً :

من مكان فراشي ، فقلت :

« عجيب ! كأنما صُنع ليلاً في أثناء نومي ! »

فضحك الشيخ عاد ، وقال :

لقد كشفت خلفه سرّ داباً .

— وإلى أين يُفضي هذا السرداب ؟

— أكبرُ ظني أنه مُفضي إلى داخل القصر !

وجاءت « مس إيقانس » وكانت قد انتهت من تصفيفِ

شعرها ، فعَقَصَتْهُ بمهارة خلف رأسها . وتساءلت :

« ما الخبر ؟ »

فقصَّ عليها الشيخ كشفه الجديد ، فقالت له :

وماذا تَرَى ؟

— ندخلُ في الهردابِ على الفورِ لإتمامِ الكشفِ !
ودخلنا . . . فإذا بنا في ممرِّ رَطْبٍ ، بدأ ضَيْقاً ، ثم
انْبَسَطَ ، حتى أصبحَ مراً فسيحاً تغشاهُ ظلمةٌ غيرُ حالكة .
ولم نسر فيه طويلاً ، حتى رأينا أمامنا درَجاً حلزونياً كأنه
درَجٌ مِثْدَنَةٌ ، فجعلنا نَصْعَدُ فيه . وكان الشيخُ عادٌ ، يتوقفُ
بين كَيْفَةٍ وأخرى ليتفحصَ الجدارَ أو الدرجَ .
وأخيراً هَيَّئَ قائلاً :
« إنه منحوت في صميم الجبل . . . »
فقلتُ :

ولكن يلوح لي أنه بلا مُنتهى !
— إذا سُرِقَ به إلى السمواتِ العُلا !
وما فتئنا نَصْعَدُ ، إلى أن بلغنا غايةَ الدرجِ ، وقد أخذ منا
الجهدُ كلَّ مأخذٍ . وألفينا أنفسنا أمامَ مُغْرَةٍ في حِجْمِ
الأبوابِ المألوفةِ يَنفُذُ منها نورُ النهارِ . ورأيتُ « مس إيقانِس » ،
تَهالِكُ على الجدارِ ، ممتَفِعةً الوجهَ ، فأقبلتُ عليها ، وأسندتها
إلى صدري ، وأخذتُ أروِّحُ وجهها بمبديلى . وانتظرنا حتى

أفاقَتْ من غَشِيَتِها . ولما وَجَدَتْ رَأْسَها على صدرى ، بدا
عليها الدهش ، وقالت وهى تستعيد وَقْفَتَها :

« إني آسفة . . . آسفة جداً . . . هيا . . . فلنتابع سيرنا ! »
وَلَجْنَا الشُّعْرَةَ فَإِذَا نحنُ في رَدْهَةٍ فسيحة يغمُرُها النور ،
وينطلقُ فيها الهواء ، يأتيان إليها من نافذَتَيْنِ مستطيلَتَيْنِ ،
ورأينا صُفْفاً من الحجر ، في كلِّ جانب من جوانب الرَدْهَةِ
صُفَّةٌ ممتدة ، وفي وَسْطِها خِوَانٌ كبير من الْحَجَرِ أيضاً .
فالتفتُ إلى رفيقِي ، وقلت :

« كأننا في قاعةٍ مَحْكَمَةٍ من محاكم القرونِ الخالية ! »
فأجاب « الشيخ عاد » :

« قد يكون صاحبُ القصرِ أَعَدَّها لِتَصْلُحَ لذلك . ألم يكن
أميراً على عشائره ؟ »

وانتحت « مس إيقانس » جانباً ، تؤدِّي بعضَ الحركاتِ
الرياضيةِ الخاصةِ بالتَّسَنُّفِ ، ثم اتجهتْ نحوَ الصُّفَّةِ ، حيثُ
تقوم خلفها النافذتان ، فأسرعتُ أَنْظِفُها ، وأنفَى عنها طبقاتِ
الغبارِ التي كانت تَكْسُوها . فشكرتُ لى ، وجلستُ ؛ ثم أَلَقْتُ
بظهرِها إلى الحائط ، فقلتُ هامساً :

« أما زلت مُنْعَبَةً ؟ »
 فأجابتنى ، وقد أسبلتُ جفنيها :
 « أشعُرُ بتعب ، ولكنه ليس بالكثير »
 وكان « الشيخ عاد » يحبُّ الحجرةَ ويتفحصُها ، فلم أُلْقِ
 بالآلِ إليه ، ولم أغادرُ مكانى أمام « مس إيفانس » وقفتُ
 أطيلُ النظرَ في وجهها الهادئ ، وقد غَشِيَتْهُ غَفْوَةٌ خفيفةٌ ،
 فإذا به قد عراه هُزَالٌ وشُحوبٌ لم ألاحظه من قبل . ولكن
 ذلك لم يَنْبَلْ من وسامته ، بل لعله قد زاده إغراءً وفتنةً .
 فإن هذه الصُفْرَةَ القليلةَ التى انتشرتْ على صفحته ، فاختلطتْ
 بمُحْمَرَّتِهِ الأصلية ، أكسبته لوناً شقيقاً رائعاً ، زائتُه
 رُوحَانِيَّةٌ ساحرةٌ ، تنطق بها كلُّ قِسْمَةٍ من قِسِمَاتِهِ . روحَانِيَّةٌ
 أضاءت خلف أجفانها المُسْبَلَةَ ، وشاعتْ تحتَ بَشَرَةٍ وجهها
 النَّضْرُ ، فأحالتْ تلكَ الطَّلْسَةَ من وجهِ إنسانٍ مركَّبٍ من
 لحمٍ ودمٍ وعظمٍ ، إلى طيفٍ مؤلَّفٍ من عناصرٍ نُورَانِيَّةٍ لا تتنسَّبُ
 إلى المادَّةِ بشئٍ !
 وأحسستُ يداً تَلَا طِفْ كَتِفِي ، وسمعتُ « الشيخ عاد »
 يقول :

« ماذا تَفْعَلُ ؟ أتَحْلُمُ بالنعيمِ الموعود ؟ »

فنظرتُ إليه طويلاً ، وأنا صامت ، ثم أجبتُ في خُفْوتٍ :

« بل أجلسُ بالنعيم المفقود ! »

فابتسمَ ابتسامةً خفيفةً ، وَضَعْتُ يَدِي ، ثم اقتادني إلى

النافذة ، وهو يقول :

« انظر ! »

وانطلقتُ أَتَطَّلُعُ من النافذة ، فإذا حديقةُ القصرِ مبسوطةٌ

تحتَ أعيننا ، على مرتفعٍ شاهق . وعلى الرَّغمِ من ذلك ،

استطعنا أن نلهجَ شيئاً يتدحرجُ في ساحةِ الحديقةِ أمامَ

الأشجار . وظللتُ أدقُّ النظر ، فتبينتُ شخصاً « مجاعصاً ،

في هذا الشيء . . . يتمرَّغُ على الأرض ، كما تتمرَّغُ الدابةُ

الطُروب . فقلت :

« إني أُمْنِحُ نصفَ عمري ، إن كان لي عُمرٌ يستحقُّ الذكر ،

لمن يُنيلني سعادةً هذا الرجل ! »

وشهدنا « مس إيقانس » ، تشاركتنا في النظر ، وهي تبسم ،

وقد بدا عليها أنها استفادتُ أيما استفادةٍ من تلك العَفْوَةِ التي

أغقتها . . . وقالت :

« إننا على ارتفاعٍ عظيم ! »

فقلت :

كأننا في ذِرْوَةِ كَهْرَمٍ ، خوَفو ، ا
 — كلما طال مكثنا في هذا المكان العجيب ، تكشَّفت لنا
 معالم جديدة تُورِثُ الدهشة .
 ونظرْتُ إلىَّ ، ثم قالت :
 أفأسفُ أنتَ لهذه المخاطرة ؟
 فابتسمتُ وقلت :
 « اذا كنتِ أنتِ تأسفين ا ،
 — إني شديد الغبطة بما يحيط بي من عجائب . والآن هيَّا
 نستأنف عملنا في كشف القصر !
 فتقدَّم الشيخُ عاد ، وقال :
 « لقد ألقيتُ نظرةً على بقية القاعات ، فلم أرَ فيها جديداً ،
 ولكن لا بأسُ بأنْ تُسرَّحوا نظرَكم فيها
 ومضى أمامنا ، وسرنا خلفه ، فاخترقنا بعضَ قاعاتٍ وممرَّاتٍ
 لا تختلفُ عما شاهدناه . وكانت كلها تربةً ، يَدُلُّ مظهرها على
 أنها لم تطأها قدمٌ منذ أعوامٍ مديدة . . . ورأينا لبعضِ الحجرِ
 مدافيناً ، وبعضٍ نوافذها مغاليقَ من خشبٍ غليظٍ أو من

حَجَرٌ . ولاحظتُ على « مس إيفانس » أنها قد لاذتُ
بالصَّمتِ ، فكانتُ تتلفَّتُ حولها تَلَفَّتُ الحالم ...
ووصلنا أخيراً إلى بابٍ في نهاية الممرِّ ، فقال لنا
« الشيخُ عاد ، :

« أكبر ظني أنه بابُ الخروج ! ،
وسمعنا « مس إيفانس » تنطقُ في سُهومٍ بقولها :
« لا أدري لماذا يدْعُوني : صفاء ؟ ،
خذ قننا فيها صامتين ...

ثم راح « الشيخُ عاد » يعالجُ فَتَحَ الباب ، وكان من خشبٍ
غليظ . فلقِيَ بعضَ الصعوبة ، فأقبلتُ عليه أساعده ، فتمكَّنا
من زحزحته ، وفُتِحَ مكانٌ لنا نَجُوزُ منه . فقد كان الخشبُ
متماسكاً ، مشدوداً إلى الحجر ، حتى ليكاد يكونُ معه بنياناً
واحداً ... ومررنا منه ، فأسلمنا إلى تمرٍّ ضيقٍ أظلمَ
والتَّوى ، وكما توغلَّنا فيه أطبقتُ علينا دَياجيه واشتدَّت .

وقال « الشيخُ عاد » في صوتٍ خفيضٍ :
« قَبَّحَنِي اللهُ ألم أحضِرْ معي شمعاً ولا ثقاباً ! ،
وبحثتُ أنا و « مس إيفانس » عن ثقاب معنا ، فلم نجد منْ
شيء . فقلتُ :

« نعود من حيث أتينا ، فالطريقُ خلفنا معروف . . . »
فقال « مس إيفانس » :

بل تقدم ، فرجما أرحنا النُّقابَ عن جديد !
— كيف يتجلّى لنا في الدُّجَى شيء ؟

— أو تَظُنُّ أن المكانَ سيظلُّ على إظلامه طويلاً ؟

وأمسك بعضنا ببعض ، وتقدمنا في خطأ وئيدة ، وكان
الشيخُ رائدنا ، يتلمَّسُ الطريق ، ويلقي علينا الأوامر . . .
وسرنا . . . وسرنا . . . واختلَّ توازنُنا دَفْعَةً واحدة .
فوقعتنا يَتَشَبَّهُ كلُّ منا بصاحبه ، وهويُّنا متدهورين في
مُنْحَدَرٍ زَلِق . وقبل أن نُفِيقَ من ذهْشَتِنَا وجدنا أنفسنا
في الشَّكَّةِ الصَّائِدةِ في الحديقة ، ومن مِمَّ تَسَاقَطَتْنَا على الأرض .
وسمعتنا قهقهةً عاليةً وضجيجاً ، فإذا « مجاعص ، أماننا مُغْرِبٌ
في الضَّحِك ، وهو يقول :

« ما أحلامكم وأتمُّ مُعلِّقون في الشبكة ! ألا تُعيدون الكرة ؟ »
وقمنا ونحن نَنفُضُ الترابَ عن ثيابنا ، وصرخ « الشيخ عاد »
في وجه « مجاعص ، فأخبرته . . . وما كدنا نسير بضعة خطوات .
حتى التفت بعضنا إلى بعض ، وغلب علينا جميعاً ضحك متواصل !

شم تهرقنا : مكث ، بجاعص ، في الساحة بجوار الشبكة ، أما
أنا والشيخ ، فقصدا إلى التبج نستروح ببعض الحديث . وكانت
وجهة « مس إيقانس » الكوخ .

وبعد قليل تململت في جلستي ، وتأهبت للقيام ، فانفرجت
شفتا « الشيخ عاد » عن ابتسامة هادئة ، وقال :
حقاً لقد أبطأنا عليه !

— من سعى ؟

فقام ، وتأبط ساعدي ، وقال :

هياً بنا ...

— إلى أين ؟

— إلى الجريج ... أتحسبني أعني غيره ؟

* * *

وصلنا إلى هنالك ، فصادفنا « مس إيقانس » منحنية على
« الجريج » تساعده في تناول شراب من وعاء فخاري ، فلما
رأتنا قالت :

« لقد أعددت له عصير فاكهة ، إنه في حاجة إلى التغذية

الحقيقية ! »

— ١١٨ —

فأجابها « الشيخ عاد » :

« حسناً صَنَعْتَ ! »

وكان الجريحُ يُقْلَبُ فِينَا بَصْرَهُ الحَاثِرَ الحَذِرَ ، وهو

مُغَضَّنُ الجَبِينِ ، فقالت له « مس إيقانس » :

« إنهما صديقاي ، وإني مدينةٌ لهما بفضلِ الِاهْتِدَاءِ إلى

هذا القصر ! »

فانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ شَيْئاً ، ولم يتلفظْ بِحَرْفٍ . ورفع

رَأْسَهُ يَحْسِبُنَا ، فأقبل عليه « الشيخ عاد » هَاشِئاً بِأَشْنَاءٍ ، وهو

يقول :

« كيف أنت الآن ؟ »

فقال في هَمْسٍ :

بِخَيْرٍ !

إننا آسفون لما وَقَعَ لَكَ . . . كان خطأً غيرَ مقصودٍ :

فأجاب في لَهْجَةٍ يَقِينٍ ، وهو يَزُمُّ شَفَتَيْهِ عَقِيبَ كُلِّ كَلِمَةٍ :

« ليس ما وقع بِخَطَأٍ ، إنما هو العَدْلُ الإِلَهِيُّ أَتَقْبَلُهُ رَاضِياً

قَرِيرَ العَيْنِ ! »

ثم عاد يَنْهَلُ مِنَ الإِنَاءِ ، مُتَقَرِّبُهُ إِلَى شَفَتَيْهِ « مس إيقانس » .

وبعد أن ارتسوى مسحَ براحتهِ فمه ، وأسند ظهره إلى كُومَةٍ من
العُشب ، ثم أَرخى جَفَنَيْهِ !

وبعد لحظةٍ تكلم بصوت خافت ، وهو ممسكٌ بيد « مس
إيفانس » ، قائلاً :

« إنني أراكِ الآن في ثياب العُرس ، والعداري يحيطنَ
بك ... أراكِ مثلثةً تفيضينَ حياةً ونورا ... ثم أرى
الغدَّارة صُوبتْ نحوكِ ، والرصاصَ مختَرقةً قلبَكِ . ثم ... »
واحتبسَ صوته ، فلم تُعدْ نَسْمَعُهُ ، وإن كانت شفاته
ظَلَّتْ تَتَمَوَّجَان !

ورأينا خيطين من الدموع يتهايان على خَدَيْهِ !
وما هي إلا فترةٌ قليلةٌ حتى سَكَنَتْ حركَةُ شَفَتَيْهِ ، وكانت
« مس إيفانس » تُلَا طِفْ يَدَهُ ، ثم نظرت إلينا تقول :

« مسكين ! »

وكان منظره حقاً يَسْتَدِرُّ الرِّثَاءَ !
ولم ألبث أن وَجَدْتُني أُنَدِّفُ قائلاً :

« لا زيب أنه فَقَدَ عقله ! »

ففتح عينه ، وصوَّبَ نَظْرَهُ إلى مُحَدِّقًا ، وقال :

« كلا ، ياسيدى ، لستُ مجنوناً ! إن المجنونَ لا يستطيعُ أن
يمكثَ غيرَ مُجْتَبَرٍ خمسةَ وعشرينَ عاماً فى هذا المكان ! ،
فقالَت « مس إيفانس ، وقد اتَّسَعَتْ حَدَقَةُ عَيْنِهَا :
أَنْتَ فى هذا المكانِ منذُ رُبْعِ قرن ؟
— لم أبرحْه دَقِيقَةً واحدةً طَوَالَ هذهِ الحَقْبَةِ
فابتَسَمْتُ ابتسامةَ إِشْفَاقٍ ، وَهَجَسْتُ :
« أليسَ هذا هو الجنونُ بعينه ؟ »
ولم أكدُ أَتِمُّ جملَتى ، حتى رأيتُ الجريجَ يَشْرِبُ وقد
احْتَفَنَتْ عَيْنَاهُ ، فكأنهما جمرتان تَتَلَهَّبَانِ .
وَأَمْسَكَ بِالْإِنَاءِ الْفَارِغِ ، وَهُوَ يَصِيحُ :
« اسكُتْ ، وَإِلَّا سَجَجْتُ رَأْسَكَ بِهَذَا ! »
فهدَّأتُ « مس إيفانس » من رَوْعِهِ ، ومالَ عَلَى « الشَّيْخِ »
عَادَ ، يَنْصَحُ لى بِالْإِثْرَامِ الصَّمْتِ . فانتحيتُ ركنًا غيرَ بعيدٍ ،
وَلَبِثْتُ أَرَأَيْتُهُمْ ، وَأَصْنَعِي لِمَا يَتَبَادَلُونَهُ مِنْ حَدِيثٍ .
قالت « مس إيفانس » للجريج :
« اصْدُقْنِى الْقَوْلَ ، مِنْ أَنْتَ ؟ »
فقالَ لها وَقَدْ لَطْفَ صَوْتِهِ ، وَخَفَّتْ حَدَثُهُ ، وَتَحَيَّرَ
الدِّمْعُ فى عَيْنَيْهِ :

— ١٢١ —

صفاء ١٤ أَنْسَيْتِ مَنْ أَنَا؟

— قُلْ بربك ، من أنت ؟ من أنت ؟

— يالك ! أَنْسَيْتِ يوسُفَ الصافي ؟

— حفيد الشيخ بشير الصافي مشيّد القصر ؟

— إِذَا بدأتِ تَتَذَكَّرِ يَنِّي !

— ولكن يوسف الصافي انتحر !

ووضّحَ الإعياءُ بغتَةً على وجه الجريح ، فأنخى « الشيخ عاد »

على قلبه يَتَسَمَّعُ ، ثم قال :

« يجب أن يرتاح ! »

ورأينا « يوسف » قد تراخى جفناه ، وانسابَ به الكرى .

فهمس « الشيخ عاد » في أذن « مس إيفانس » ثم تركا الرجل ،

وجاءا إلى . وذهبنا إلى النَّبْعِ ، ونحن سُكُوتٌ ، وجلسنا

شبهَ دائرة ، نحدِّقُ في كلمة « صفاء » المنقوشة في الصخر

الأمّلس ، تتدفَّقُ عليها مياهُ الينبوع ، فتدعها تَخْتَلِجُ

حُرُوفُها ، كأن لها قلباً حياً يَنْبِضُ !

وبعد حين قال « الشيخ عاد » :

« إن السرَّ يُوْشِكُ أن ينجلي ... »

— ١٢٢ —

فقلتُ :

كيف ؟

— إذا كان الرجلُ صادقاً في زعمه ، فإن قصةَ انتحاره التي
نقلها إلينا الرواة ، إشاعةٌ مُتخلِّقة !

فقلتُ :

أَوَ تَظُنُّ أنه صادقٌ فيما زعم ؟
— أميل إلى تصديقه .

وَبَرَقَتْ عَيْنَا « مس إيفالس » ، وقالت :
« أما أنا فأعتقد أنه غيرُ كاذب » ،

مطاطاتُ رأسي ، وعَمِيتُ في الأرضِ بعودِ يابس ، وقلتُ :
« قد يكونُ صادقاً ! ... »

وطالت جَلِيسَتُنَا : فقال « الشيخ عاد » :
« إني لا أرى مجاعص ! »

فقلتُ :

لقد صحتَ به صيحةٌ أوقعتُ في قلبه الرُّعب .
— لقد أساء الأدب .

— ١٢٣ —

- ولكن لا تنس أن موقفنا كان مُشيراً للضحك
- ما كنتُ أتوقعُ لنا هذا الحادثَ مطلقاً .
- غريب أن ينتهى مَطافُنَا فى القصر قريباً من فَوْهَة

الدخول ١

— ليتنا كنا على عِلْمٍ بذلك فى أولِ الأمرِ !
 ونهض « الشيخ عاد » يبحث عن « مجاعص » وبقيتُ و « مس-
 إيفانس » وحدتنا فى المكان . وبدأنا نسمعُ صوتَ « الشيخ عاد »
 يُنادى « مجاعص » ، فتشردُّ جوانبُ البقعة صداه فى رنينٍ
 سحرى ، وكنت جالساً القُرُفُصَاءَ صامتاً وعينائى تحدقانِ أُمَامِى
 تحديقاً شاردآ ، وقد شعرتُ بموجة من الآسى تطغى على نفسى ،
 إذ استعدتُ فى خاطرى ما جرى بينى وبين الجريج من جدلٍ لم
 يخلُ من حدةٍ وعُنف .

وبعد فترة طويلة من الصمت ، شعرت بيد « مس إيفانس »
 تَلَاطِفُ يَدِى ، وتقول :
 « أمستاء أنت ؟ »

ولم ألنفتُ إليها ، وظَلَلْتُ على حالى أَحَدِّقُ أُمَامِى ، وقلتُ :
 مستاءُ من ؟

— منه !

— كلا... اطمَئِنِّي من هذه الناحية . وهل أُعِيرُ اهتمامي
شخصاً بخبولا ؟

— لماذا يصطبغ حديثك في شأنه دائماً بهذه اللهجة القاسية ؟
— وأنت . . لماذا تُسْظَلِلِينِه دائماً بهذا العطف الغريب ؟
— ألا يستحقُّ منا هذا العطف ، بعد أن كدنا نقتله ؟
— لو لم نبادره بهذه الضربة ، لقتلَ علينا جميعاً . إنه
من قُطِناع الطريق ، وقد انتحلَ شخصيةَ هذه شخصياتِ
الأساطير ، يُخفي تحتها شخصيته الزائفة . إنه يُمثِّلُ دوره في
إتقان ، وقد قدَّرَ على أن يستهويَ بك ، فيُخَضِّعَكَ لسلطانه
السحري !

— ما هذا ؟ ألا تخجلُ من قولك ؟

— إني لا أخجل من قول الحق ، وإسداء النصيحة !

— بل إنك لتغارُ منه . . .

لجأبتها ، وحدقتُ فيها بشدة ، كأنما يتطايرُ من عينيَّ
الشررُ ، وقلت :

« أنا أغارُ منه ؟ . . أنا ؟ »

ولم أزدُ على هذا، ولم تجب د مس إيفانس، بحرف -
وَبَقِينَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ بِلَا كَلَامٍ، يَحْدَقُ كُلُّ مَنْ فِي صَاحِبِهِ.
وَأَخِيرًا أَلْفَيْتُ د مس إيفانس، تَسْبِيلَ جَفَنِيهَا، وَيَقُولُ
لِي فِي لَهْجَةِ مَحْزُونَةٍ :

« إِنِّي آسَفَةٌ ! أَرْجُو أَنْ تَنْسَى مَا وَجَّهْتُهُ إِلَيْكَ مِنْ قَوْلٍ ... »
فَحَفَظْتُ رَأْسِي، وَأَنَا أَجْمَعُ :
« وَأَنَا أَيْضًا شَدِيدُ الْآسَفِ عَلَى مَا بَدَّرَ مِنِّي . أَرْجُو أَنْ
تَسَاحِبَنِي ! »

وَأَقْبَلَ د الشَّيْخَ عَادَ، فَرَأَانَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، فَادْرَكَ كُلَّ شَيْءٍ،
وَلَسَكُنْهُ تَظَاهَرُ بِأَنَّهُ لَمْ يَلَاظْ شَيْئًا .
ثُمَّ قَالَ :

« إِنَّ الْخَبُولَ بِمَجَاعَصٍ غَيْرُ مَوْجُودٍ ! »

فَقُلْتُ :

كَيْفَ ؟

— بِحَسْبِ عَنِّهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَلَمْ أَعِثْ عَلَيْهِ .

— قَدْ يَكُونُ مَحْتَبًّا فِي مَوْضِعٍ خَفِيَ هَرَبًا مِنَّا ...

فَقَالَ د الشَّيْخَ عَادَ :

«ربما كان الأمر كذلك»

• • •

وقضينا النهارَ بأكمله نبحث عن «مجامعص»، فلم نجدَ له أثراً
 «هاشتدَّ قلقنا عليه... وكانت «مس إيفانس» والشيخ عاد،
 «يُعَوِّدانِ الجريج» في الحين بعد الحين، أما أنا فقد فضَّلتُ
 ألا أزوره وألا أبدأ حديثاً في شأنه. ولكنني علمتُ من الشيخ
 أنه مازال يهنِّدي باسم «صفاء»، ويروى نُتَفَاءً متقطعة مختلفة
 تصِفُ مَضرَعَهَا في حفلة عُرْسِهَا...

ولما هجمتُ حَنَادِسُ الليل، وسار كلُّ منا إلى مخدَعِهِ،
 اعتراني همٌّ ثقيل، جَحمٌ على صدرى، همٌّ قد اختلَطَ بخوفٍ
 وجُبْنٍ. ودخلتُ المغارةَ في خُطاً مترددةً، ثم أقبلتُ أبحتُ
 مهقاً: «هناك بابٌ آخر أو مكان مستتر خلف الجدران؟ وأحكمتُ
 إغلاقَ البابِ المفضي إلى سردابِ القصر، وأردتُ أن أُرَدِّ بابَ
 المغارةِ أيضاً، ولكنني لم أفعل، إذ وجدتُ في تركِها مفتوحاً
 بعضَ الطَّمَائِنَةِ، فقد أحتاجُ إلى المعونة، فاناذِ بعضَ الرفاق،
 فيستَمِعُ صوتي، ويخِفُّ لِنَجْدِي... ولكن يَمُنُّ أخاف؟
 ولماذا أطلبُ العون؟ ذلك ما لم أكن أملكُ الجوابَ عنه!

وأشعلت المدفأة لاستئير بضوئها ، واستدنى بهجارتها .
واستلقيت على الهشيم ، وقد كعمت رأسي يدي ، وانطلقت
أحدق في سقف المغارة الكثير الثنوء ، ونار المدفأة تتلاعب
عليه في أشكال بشعة . ورحت أفكر في هذه العلاقة العجيبة التي
نشأت بين « مس إيفانس » والجريج ، وجعلت أجمع أمام عيني
ما وقع لي معها اليوم من مشاحنة ، وأستحضر اتهامها إياي
بالغيرة من الجريج .

وتكألت على الهوم ، وأحسنت كأن يداً تأخذ بمنخني ...
لماذا قبلت أن آتي معها لكشف هذا القصر المشنوم ؟
لقد بت أكرهه كما أكره صاحبه ... لم لا أتركه وأعود
من حيث أتيت ؟ ... و « مس إيفانس » ؟ ... أفأدعها بين
خزاعي ذلك الجريج المخبول ؟

وخيّل إليّ أني أسمع صوتاً يقوى في مكان محيق ،
وأرهفت أذنيّ أصغى في اتباه ... أهنالك ذئب تحيط بنا ؟
لست أدري !

ونفضت أغلق باب المغارة ، وعذت إلى الهشيم فارتيت
عليه ... وتعالى الغواء ثانية . أعواء ذئب هو ، أم صوت

آدمي؟ لم يتبين لي حتى الآن شيء . . . إنه ليس صادراً من بعيد ، كما توهمت بادىء بدء ، فهل هو صوت حبيس خلف الجدران المحيطة بي؟

وتذكرت غيبة مجاعص ، ، فاختلج جسمي اختلاجة مفاجئة . لم لا أذهب فأدعو الشيخ عاد ، ؟ وجلست على فراشي أحتق في باب المغارة ، واستمهل نفسي وقتاً ، وأرهفت أذني كل الإرهاف ، ومكثت على هذه الحال مدة ليست بالقصيرة أنسمع ... قد يكون هذا العواء صدى لصوت نفسي العلية المضطربة . إن أعصابي ثائرة ، وإني في حاجة إلى شجاعة نفسية كبيرة لضبطها . . . فألقيت بجسمي على الفراش ، وأرخيت أجفاني ، وأرغمت نفسي على النوم ، كما أرغمتها كذلك على التفكير في شؤون أخرى ، بعيدة كل البعد عما كنت أجيل خاطري فيه .

وكدت أنجح في مساعي ، وشعرت بطلائع النعاس الأولى تغزو رأسي... وابتهت مذعوراً ، وأنا أتلفت حولي ، وكلتي أذن صاغية : أيكون ما سمعته اللحظة حلياً أم حقيقة واقعة ؟ ورأيتني أقفز من فراشي ، وأترك المغارة عدواً ، آخذاً سمنق

— ١٢٩ —

إلى مَبِيتِ الشيخ عاد ، وما إن واثبته ، حتى جعلت
أهزه ، وأقول :

« استيقظ ! استيقظ ! »

فرفع الشيخ جفنيه مرعوباً ، وقال :

ماذا ؟

— سمعت صوت استغاثة ...

— استغاثة « نجاص » ؟

— لا أدرى على وجه التحقيق ، يَحِيلُ إلى أنه حبيسٌ في

مكانٍ مجهول .

— حبيس ؟ ومن حبسه ؟

— من يَدْرِي ؟ قد يكون في قبضة شيطانٍ عنيد ...

فنظر إلى مَلِيًّا ، وهو يتفحصني ، وقال :

أستيقظُ أنت ؟

— تمامَ اليقظة . . . يجب أن نغادرَ هذا الوطنَ الممقوت ،

يجب أن نُبَارِحَهُ من الغد . وإن استطعنا الليلةَ أن ننتقل ، كان
أوفقَ وأمثلَ .

— هَدْيٌ من رَوْعِكَ . . . أراك مضطرباً !

— ١٣٠ —

وناولنى قليلا من الماء ، فشربته ، وقلت على الأثر :
وهى .. يجب أن ننسجسها منه . إنها تحت تأثير مغنطيسى
شديد !

— ولكنك تحدثنى فى أمر « مجاعص » ، وتذكرنى
أصوات استغاثة !

— لا أدرى ! لا أدرى !

— قم بنا إلى المغارة ، وسأتبين الأمر بنفسى ، فإذا كان
ما سمعته أصواتاً حَقِيقَةً ، بدأنا نبحث عن « مجاعص » فوراً .
وقت معه إلى المغسرة ، وجلسنا على الهشيم ننتصت فى
انتباه ، وأمامنا نارُ المدفأة ، وقد أخذتْ جُذُوعُهَا تُسرعُ إليها
الخنودُ فتُحسُّ الظلمة والبرودة تشيعان حولنا رويداً ...
وما هى إلا أن عاد الصوتُ ثانية . . . سمعته واضحاً هذه
المرة ، فأكاد يبلغُ أذنَّ « الشيخ عاد » حتى استوى فى
وقفتيه ، وقال :

« إنه مجاعص . . . هو بعينه ! »

ثم تخطف من الموقدِ جذعاً طرفه ملتهب ، وقال :
« اتبغنى ! »

ورأيتُه يتجه نحوَ البابِ المفضي إلى السَّرْدَابِ، الذي دخلنا
منه إلى القصرِ هذا الصُّباحَ، فسيرتُ خَلْفَهُ، وأوغلنا في
السردابِ، وكان منظرُهُ على ضوءِ ذلك المِشْعَلِ الخافتِ مرهوباً
مُفَزِّعاً، وسرنا والشيخُ يَتَسَمَّعُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وتراذفَ
الصوتِ، ولكن في صُغْفٍ وتراخٍ، فتبينتُ لي فيه استغاثة
مكروبةٌ لا هفة... وقال الشيخ عاد، :

« لقد أحسنتَ صنْعاً إذ أيقظتني... إن المسكينَ في
مأزقٍ حرجٍ! »

ورأيتُه يَصْعَدُ الدَّرَجَ في بُطْنٍ شديدٍ، وهو مازال يَنْتَصِتُ
ثم إذا به قد وقفَ دَفْعَةً واحدةً، وأخذ يتراجِعُ إلى الوراءِ،
وصاح وعيناه تحدقان حيثُ موطنُ قدميه :

« انظر ! »

فتقدمتُ خُطْوَةً، ونظرتُ باحتراسٍ، فوجدتُ أمامي
جُفْوَةً دَامِسَةً كأنها فَوْهَةٌ بَرٌّ، فقلتُ وأنا أرتعد :

لم تكن موجودة في الصُّباحِ

— من حُسنِ حظنا... —

— وكيف وُجِدَتْ؟ —

— ١٣٢ —

— هذا ما لا أعرفه على وجه اليقين . غير أنه لا بد أنه
الدرجتين اللتين كانتا تُغَطِّيَانِها ، لم تكونا من صميم الدَّرَجِ
المحفور ، بل كانتا منفصلتين عنه . أما كيف سَقَطَتَا ، وجماعص
فذلك سرٌّ من أسرار هذا القصر !
— أهو هُنَاك ؟

ولم أكْمِلْ جملتي ، حتى تنأى إلينا صوتُ المسكينِ ،
وكانه آتٍ من مكانٍ قصيٍّ . . فصاح « الشيخ عاد ، يُطْمِئِنِّه »
ثم التفتَ إلَيَّ ، وقال :

علىَّ بالحبيل !

— الحبيل ؟

— لأتدلىَّ به إلى حيثُ هَوَى .

— لا أذكر أين وضعناه ؟ ..

— ولا أنا أيضاً . . . قد نكون نسيناهُ في خارج القصر
ولكن يوجدُ في كوخ « يوسف الصافي » ، — أعنى حجرةَ
« مس إيفانس » ، — شيء يُشَبِّه الحبيل ، يصلحُ لهذه الغاية .

— أو تستطيع الحصولَ عليه في هذه الساعة ؟

— يجب أن نحاولَ المستحيل ، لإنقاذ روح إنسانية
تستغيث . . . هيا !

— ماذا ؟

— اذهب إلى الكوخ ، ورجنى بما طلبت .

فانظرتُ إلى الشيخ عاد ، متحيراً ، فوجدته يزّو إلى بنظرة
ثابتة . فأطعته ، وخرجت أتجسسُ طريق في الظلام المدهم .
وأخيراً وصلتُ إلى الكوخ ، فوقفت أمام الباب متردداً .
شم طرقتُه بعض طرقات . فأجابت « مس إيفانس » وقد يان
الرعبُ في صوتها :

من . . . ؟ من يدقُّ الباب هكذا ؟

— أنا . . . أنا يا « مس إيفانس » !

— أنت ؟ . . . ماذا جاء بك في هذه الساعة ؟

— افتحي ! . . . أمرٌ خطير . . .

وشعرتُ بها تستوى على فراشها ، ثم انقضت هنية لم
تتحرك في أناتها ولم تتكلم ، فهل خامرها شك في طويّتي ؟
وهي ظنت أني أحتالُ عليها لغرض في نفسي ؟ فصحت ثائراً :

افتحي ! افتحي ! إنه يُختصر !

وأحسستُ بها تثبُّ عن السرير ، وفي طريقة عين وجدتها
بالباب أمامي . وقالت في جزع :

أحقاً أنه يُخْتَطَرُ ؟

وفهمت على الفور من لهجتها من تقى . وأدركت هي
من تراخي في الإجابة أنها تعجّلت في إزاحة النقاب عن
عواطفها وقلت في تمهل :

« إن الشيخ عاد أرسلني لأحضر له حبلاً »

وأوضحت لها بإيجاز قصة الدرجتين اللتين هورتا به جماعص
في مسقط يشبه البئر وكانت تُصنّف إلى في انتباه ، ونور
اللال الغارب يلقى بضوئه المتخاذل عليها ، فيزيد في قتها ،
وهي تخطُر في ملابسها الساذجة ، وخصائل شجرها الطليق
تترسل على كتفها ووقفت قليلاً لا أنكم ، أناجي بعيني
ذلك السحر الخلاب !

وسمعتها تقول :

« تقدم ، وادخل ، ولنسبحك عن الحبل . . »

ودخلنا ، فلم نجد حبلاً القديم ، وثبت لنا أننا تركناه في
خارج القصر في المغارة الأخيرة . فجَمَعْنَا ما في الكوخ من
ألياف تصلح لأن يُصنَّع منها حبل ، وفهينا بها إلى مكان
« الشيخ عاد ، ، فَمَسَّ قائلًا :

— ١٣٥ —

« أخشى أن يكونَ قد فاتَ الوقتُ ا ،

فقلتُ فزعاً :

كيف ؟

— لقد صرّختُ أناذيه مراتٍ كثيرة ، فلم يَزِجْجِ إلى

من جواب ا

فغمغمتُ « مس إيفانس » :

« المسكين ا ،

وقلتُ :

« قد يكون مُغْمى عليه ا ،

فأجابني « الشيخ عاد ، في حُسرة

« قد يكون ذلك ا ،

وأقبلنا نحن الثلاثة على أشتات الألياف نَقْطِلُها ونجعلُها

حَبْلًا مَتِينًا . وكنا نعملُ بهِمَّةٍ ونحن صامتون ، والكونُ

حولنا ساكنٌ في رهبةٍ كثيفة ، كأن العالمَ كله يشاركنا في

جزعنا على ذلك الرفيق المنكوب ا

وطال بنا الوقت ، فلم نَنبَسْ ، وأنمنا عملنا . وشدَّ

« الشيخ عاد ، الحبلَ إلى ظهره ، وجعل يَتَدَلَّى في القُوْهَةِ ،

وَبَقِيْتُ وَدَسَ إِيفَانَسُ ، قَابِضَيْنِ عَلَى الْجَبَلِ ، تُرْخِيهِ شَيْئاً
فَشَيْئاً مُتَرَيِّسَيْنِ حَذِرَيْنِ مِنْ كُلِّ طَارِيءٍ وَكَانَ الْجَذْعُ
الْمَلْتَبُ فِي يَدِ الشَّيْخِ ، يَسْتَنِيرُ بِهِ . وَأَخِيرَاشَعَرْنَا بِهِ بِصِلُ إِلَى
الْقَاعِ ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ :

« كُنِّي ،

وَمَضَى وَقْتُ وَأَنَا وَدَسَ إِيفَانَسُ ، مُتَحَدِّقٌ فِي تِلْكَ
الْفَجْخَوَةِ الدَّاجِيَةِ ، تَهْبُثُ عَلَيْنَا مِنْهَا رِيحٌ رَطْبَةٌ كَرِيهَةٌ ،
وَرَأَيْنَا الشُّعْلَةَ فِي قَاعِ الْبَرِّ كَأَنَّهَا بَصِيصٌ ثِقَابٌ . . . وَكُنَا
يَتَتَبَعُهَا بِأَعْيُنِنَا فِي حَرَكَاتِهَا الضَّئِيلَةِ ، وَهِيَ تُرْوَحُ وَتَجِيءُ ، ثُمَّ
لَا تَسْقُتُ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ .

وَشَعَرْتُ يَدَيَّ تَرْتَجِفَانِ ، وَهَمَا قَابِضَتَانِ عَلَى الْحَصَافَةِ . . وَلَمْ
تَكُنْ دَسَ إِيفَانَسُ ، بِأَقْلُ مِنْهُ إِهْتِاجاً . وَلَمَّا طَالَ صَمْتُ
الشَّيْخِ عَادَ ، هَمَسَتْ دَسَ إِيفَانَسُ ، فِي أذُنِي قَائِلَةً :

أُنْسَادِيهِ ؟

— الْأَفْضَلُ أَنْ تَتْرَكَهُ حَتَّى يَسْتَكْمَلَ فَخْصَهُ .

وَمَضَى الْوَقْتُ ، وَتَحَرَّكَتِ الشُّعْلَةُ فِي اتِّجَاهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ . ثُمَّ
سَمِعْنَا صَوْتَ الشَّيْخِ عَادَ ، يَقُولُ :

« اجذبني ! »

فأخذنا نجذبُ الحبلَ ، ورأينا الشغلةَ تتصاعدُ في تباطؤٍ ،
وأحسْتُ يدَيَّ تتخاذلان ، نِفختُ العاقبةَ ، وضاعفتُ من عزمي
حتى ظهر « الشيخ عاد » وتعلَّقَ بالقُوَّةِ متحفِّزاً للخروجِ .
فَوَهَّنتُ قوتي كلَّ الوَهْنِ ، وجلستُ مُسْنِداً ظهري إلى
الحائطِ ، أستمعُ إلى دقاتِ قلبي السَّراعِ . . .

وخرج « الشيخ عاد » وأخذ ينفُضُ الترابَ عن ثيابه . وكان
وجهه متجهماً ، وعيناه محتفَتَيْنِ ، ولم تطاوعه شفتاه على أن
ينبِسَ بحرفٍ ما ، فقطنَّا إلى كلِّ شيءٍ . . .

ووجدت « مس إيثانس » قد أخفتُ وجهها بين يديها ،
وانفجرتُ باكياً . . . فاحتبستُ أنفاسي ، وشعرتُ بالنارِ
تأجَّجَ في رأسي ، فصحتُ كالجنون :

« فلنترك هذا القصرَ المشومَ ! يجب أن نتركه على الفور ! »
واندفعتُ أمزقُ صَدَارِي ، فأقبل على « الشيخ عاد »
وأمسكُ يدي ، وقال :

« أهكذا تكونُ مواقفُ الرجال ! »

وانتقلنا إلى المغارة ، أعنى حجرتي ، وجلسنا على مقربةٍ من
المدفأة ، وقد أفاض كلُّ منا في صمته المضطرب .

ثم نمنا حيثُ جلسنا ، ولم يُغيّر أحد منا الوَضْعَ الذي كان عليه .

وقضينا اليومُ التالى فى عملٍ فاجع ينقُث فى النفسِ سمومَ الغمِّ والأسى . فأخرجنا جثةٌ « مجاعص » ، وقت أنا ، والشيخ عاد . بغسلها وتكفينها على حَسَبِ الشريعة ، ثم صلّينا عليها ، وبعدئذ دَفَنّاها فى دَعَلٍ من أدغال الحديقة . أما « مس إيفانس » فقد لَزِمَتْ حجرتها ، حتى انتهينا من عملنا ، فجاءت إلى قبره ، وثرث عليه طاقةً من الزَّهَرِ !

لا أدري كيف احتملت أعصابى هذه المشاهدَ المرهوبة ، فلن أنسى ما حِسِيتُ مَنْظَرَ الجِثَّةِ ، وأنا أجزئُها إلى الفوهة ، فنصعد على مَهَلٍ ، وتُطِلُّ على رأسها المَهْشَمِ ، والدمُ التَّربُّ المُنْعَقِدُ يلوّثُ ملاححها المتقلّصة . . . ولا أنسى ما عَانَيْتُ من المشقَّاتِ فى سبيل إخراجها ، لقد كنت أحضضُها وأنا أشدُّها شداً ، فأجد رأسها يترنَّح ، ثم يستريحُ على كَتِفِي !

هذه صورة لا تزال محفورة فى أعماقُ مخيِّلَتِي ، تترامى لى يدقائِها حيناً بعد حين !

قضينا يوماً أقتمَ ، يغشاهُ سكونٌ ثَقِيلٌ ، لم تتبادل فيه

— ١٣٩ —

الكلماتِ إلا لما... كلُّ منا مُنطَوِّرٍ على نفسه يفكِّرُ في
هذا الحادثِ، وكأنه يفكِّرُ في الوقتِ نفسه في مصيره هو
أيضاً...

ولما جنَّ الليلُ، أعددتُ فراشي بجوار فراشِ الشيخِ عادٍ
فلم أعد أحتمل النومَ في الغارِ وحدي... ومن حُسْنِ حظي
أنِّي رحتُ في نومٍ طويلٍ المدى، عوّضتُ به كثيراً من
متاعي وآلامي.

وفي الصباح قلتُ لـ الشيخِ عادٍ، وكنتُ جالساً وإياه
بجوار النُّبُعِ:
أَيُّهُ بئرُ هاته التي تَرَدَّى فيها المسكينُ بجاعص
يرحمهُ الله!

— لم يكن مَضَرَعُهُ في بئرٍ، إنما هو مكانٌ فسيحٌ لم
أعرفُ أين يبدأ ولا أينَ ينتهي... عَثَرْتُ فيه على
بقايا عظام.

— عظام؟

— أجل، عظام بشرية نَحْرَة!

— ١٤٠ —

- أَمْثَوَى قَتْلَهُ أَشْرَارُهُ ؟
- . . . كَلِمَا طَالَتْ إِقَامَتُنَا فِي هَذَا الْقَصْرِ ، اِزْدَادَتْ
أَسْرَارُهُ تَعْقِيداً وَتَعْمِيقاً !
- وَمَرَّتْ أَمَامَنَا دِمَسُ إِيْقَانَسُ ، تَحْمِلُ عَصِيرَ الْفَاكِهَةِ لِلْجَرِيحِ !
خَفِيتُنَا بِابْتِسَامَةٍ خَفِيفَةٍ ، فَأَجْبَسْنَا بِرَفْعِ الْيَدِ إِلَى الرَّأْسِ .
ثُمَّ أَسْتَسَاثَرْنَا بِهَا صَيْتٌ طَوِيلٌ . . .
- وَوَقَعَتْ عَيْنِي عَلَى اسْمِ « صَفَاءَ » ، الْمَحْفُورِ عَلَى صَخْرَةِ النَّبْعِ ،
« وَهُوَ يَرْتَعِشُ تَحْتَ الْمَاءِ » ، فَقُلْتُ لِلْجَلِيسِيِّ :
- « أَمَا زَالَ يَدْعُوهَا صَفَاءُ ؟ »
- فَرَفَعَ الشَّيْخُ عَادَ ، رَأْسَهُ ، وَقَالَ :
- كَلَا !
- وَلِمَ ؟
- إِنْ وَطْأَةً اِجْتَبَى قَدْ خَفَّتْ عَنْ ذِي قَبْلِ .
- إِذَا لَقْدَ كَانَ يَهْدِي . . .
- يُلَوِّحُ لِي أَنْ كُلَّ مَا قَالَهُ لَمْ يَكُنْ هَذِيانَا ، فَالْحَيُّ لَمْ تُطْلَقْ
مُسَامَحَةً بِكَ كَذِيبٍ وَلَا بِأَوْهَامٍ ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ خَلَطَتْ فِي رَأْسِهِ
الْمَشَاهِدُ ، وَمَزَجَتْ بَيْنَ الْخَيَالِ وَالْحَقِيقَةِ ، قَرَامَاتُ لَهُ دِمَسُ
إِيْقَانَسُ ، كَأَنَّهَا « صَفَاءُ » ، ذَاتَهَا تُبْجَعُ ثَانِيَا .

— ١٤١ —

— ماذا تَعْنِي بِذَلِكَ ؟

— لقد بدأ الآنَ يعتقد أن «مس إيفانس» و«صفاء»
شخصان متغايران .

— أَيْكونُ بينَ كليهما تشابهٌ ؟

— أُرَجِّحُ أن «مس إيفانس» صورةٌ ناطقة لـ «صفاء» .
تلك التي أَحَبَّها فيما مضى . . .
وعاودنا الصمتُ .

رأينا «مس إيفانس» راجعةً تَتَجَهَّ صوبَنَا ، وجاءت
بجِلست إلينا ، وقالت :

لقد رَوَى لى الساعةَ شيئاً من قِصَّةِ غرامه !

— أَهْناكَ اختلافٌ بينَ ما رواه ، وبين ما نعرفه من هذه
القِصَّةِ ؟

— اختلافٌ قليلٌ فى التفاصيل . أما القِصَّةُ فى جوهرها
فهى كما عرفناها من قبلُ .

فالتفت إلى «الشيخ عاد» ، وقال :

إِذَا فهو «يوسف الصافى» بعينه ، وإلا فكيف اتفقت
روايتهُ والروايةُ التي يتناقلها الناسُ عنه ؟

فقلت وأنا أداعبُ الرمل :

« وكيف تفسّرُ إذا قصة انتحاره ؟ »

فقلت « مس إيفانس » :

إن وجوده ينفبها . . . وقد سخر منها حين قصصتها عليه .

— وماذا قال إذا ؟

فأخذت « مس إيفانس » تُصلحُ خصائلَ شعرها السَّبَطِ

المتموِّج . . . ثم قالت :

« لقد روى لي كيف أن أبا حبيبته رفض أن يزوجه

إيّاها ، وآثر أن يزوجهَا غَيْرَهُ . فاعتزم أن يقضى على نفسه

وعلى حبيبته في وقتٍ واحد . وكاشفها بالأم ، فرضيت

مغتسِطة . واختار ليلة زفافها إلى غريمه موعداً لإنفاذ عزمه .

وجاء الحفلة مُتَنَكِّراً ، ودخلَ عليها في منصَّتها ، فوجدها

واقفةً بين صُويّنجباتها ، فأطلقَ عليها رصاصة من غدارته ،

فسقطت على الأرض من ساعتها . . . »

وسكتت « مس إيفانس » وعيوننا متعلقةٌ بها . ولما طال

حمسها ، قلت :

وانتحاره ؟

— لقد قال لي ، وقد أسبلَ جفنيه الندَّين بالدموع :
« ولما أردت أن أرفع الغدَّارةَ إلى رأسي لأُطْلِقَها ، لم تطاوعني
يدي ، وفي لمحِ البصر توأريت . . . كيف ؟ . . .
لا أدري ، ثم انخرطَ في البكاء ، فأشفقتُ عليه من الكلام ،
ورجوت منه أن يهدأ .

وانصرمت أيامٌ آخر ، وكنت ما أزالُ آخذاً بخطتي السلبية
تحو الجريج ، فلم أذهبَ لزيارته ، وتحاشيتُ التحدث في أمره
مع « مس إيفانس » ، إلا إذا اقتضت ذلك الضرورةُ القُضوي .
واعتراني انقباض ملازم ، فلا أذكر أن شفقتُ قد تحركنا
بابسامة ، ولا انبسطت أساري مرةً واحدة في إشراق .
فكنتُ أفضي اليوم ساهما مطرقاً ، أقطعُ الساحةَ جيئةً وذهاً .
فإذا مَلِيتُ السَّيرَ في هذه الساحة ، دخلت في الحديقةِ أجوسُ
خلالَ نخائلها وأدغالها . وكثيراً ما لبثتُ وقتاً أمام قبر
« مجاعص » ، أفكر فيه ، وأستعيدُ بالذكري ما مرَّ بنا من
الحوادث معه .

وكانت « مس إيفانس » تمرُّ بي ، وأنا في الساحةِ أقطعها
مخطواتي الثابتة المملولة ، فتنظرُ إلى بعينها الصافيتين ، ثم

نبحث إلى ابتسامتها الخفيفة ، ابتسامة يكسوها الشجنُ ويخالطها
التحسُّر ، فأتقبلها كما يتقبل الفقير المعدم الصدقة بعد صبر وحرمان
وقدِمتْ على مرةً وأنا في الساحة أهدق في كلمة ، صفاء ،
المحفورة في الحجر بخط كبير . . . فربَّتْ كتفي ، وقالت وهي
تنظر إلى يديها :

« لن تطول إقامتنا في هذا الموطن ! ،

فهدقت فيها ، وقلتُ مهتاجاً :

أحقاً ؟ ومتى اعتزمت الرحيل ؟

— بعد بضعة أيام ، ريثما يسترد الجريحُ قواه .

وسكنت ، وسكتُ أنا أيضاً . . . وما فتئتُ هي تنظر إلى

يديها ، تتأملهما تأملاً طويلاً . ثم قالت ، وقد تغيَّر صوتها :

أشعر بأنّ مشؤلة عن كلّ ما حلَّ بكم من مصائب وآلام ؟

— كيف ؟ لقد جئنا بمنحُ اختيارنا . . .

— لولم أحضّر إلى الفندق ، لما كان من هذا شيء .

— كلّ شيء رهنُ الأحوالِ والأقدار . . . ثقي بذلك

كل الثقة .

— لقد سببتُ لكم متاعبَ كنتم في غنى عنها .

— الحق يا دمس إيفانس ، أنه لولا مصرع د بجاعص ،
لما أسفت على شيء مما نالني من جهنـد . ولكن أمثال هذه
المغامرة لا تمر بسلام ، فهي تخلف وراءها ذكرى فاجعة .
— لم أكن أرضى أن تكون المصيبة في سواى ، خلال
هذه المغامرة الجنونية .

فقلت في تلهف :

« أمأسفة أنتِ على حضورك ؟ »

فنظرت إلى كلمة د صفاء ، أمامها على الحائط ، وصمتت

فترة ، ثم أجابت :

« كن على يقين أنه لن يطول أمد إقامتك هنا ، »

« وسارت بخطأ خفاف ، وغاب في معاطف الحديقة شبحاً »

وتلاحقت الأيام ...

وبينما كنت مرة في الساحة أذرعها بخطواتي التي يتوضع
فيها الملل والسآمة ، إذ رأيت « يوسف الصافي » يخرج من
الحديقة متوكئاً على ذراع الشيخ عاد ، تسير بجانبه دمس
إيفانس ، . . . وكان يوسف ، يخطو متمهلاً أشد التمهّل ،

وقد هزل جسمه ، وشعب وجهه ، فزال شيء كثير من
معالم خشونته .

وألقيته يتقدم نحوى ، تلتدسع على فمه ابتسامة وديعة ،
فوجدت نفسى أتقدم نحوه . ولمسا التقينا مددت له يدي ،
فأطبق عليها يدينه ، وضفعتها في كثير من التلطف ، وقد
انبسط ابتسامته ، وبرقت عيناه بشيرة كودّة ووفاء ، وقال
مداعباً في صوت لين الثبرات :

« أهلاً وسهلاً بقاتلى ،

فهمست قائلاً :

لم يكن يقع بيالنا أن « يوسف الصافي » يسكن قصره . . .
كنا نظن . . .

— كنتم تظنون أن هناك وحشاً أو قاطع طريق يريد
اغتيالكم . . . لم أحسن ضيافتكم . . . اعذرونى !

وسرنا حتى النبع ، فرغب « يوسف » أن يستريح ، فجلسنا
حول الماء .

يا لله ! بون شاسع بين « يوسف الصافي » الذى أراه الساعة
أمامى ، ذلك الذى يفيض رقة ووداعة ، وبين ذلك الرجل
الذى تلقاني من أيام كنمر وحش يحفز لاقتراسى !

ووقعت عيناي على « مس إيفانس » ، وقد ظلت تنظر إلى
أناملها ، ووجهها مكسو بامتقاع خفيف . فطأطأت رأسي ،
وقد شاعت على وجهي ابتسامة هادئة كابتسامة المهزوم وقد
بدأ يستسلم لهزيمته ، ويستلذ آلامها .

وطرق سمعي صوت « الشيخ عاد » يقول لـ « يوسف » :
« ألم يحسن الوقت لنعلم منك القصة بأكملها ؟
فقال « يوسف » وهو يداعب لحيته بأنامله مبتسما :
« إذا أذِتم لي روينتها لكم الساعة ! »
فقال « الشيخ عاد » :
« كلُّنا آذان صاغية . . . »

° ° °

فقال « يوسف » :
« أتم تعلمون كيف دخلت على صفاء في حفل عرسها ،
وكيف أضبْتُها بغدَّ أرقى ، فصرَّعتها . . . »
وتهمل « يوسف » قليلا ، وهو ينظر فيما أمامه نظرات تائه
شريد . ثم أرخى جفنيه قليلا ، وتابع قوله :
« ولما أردت رفع الغدَّارة إلى صدري ، لم تطل وعني يداي .

لماذا؟ لا أدري وفي كخطفة البرق تواريت ،
وجعلت أعدو ، وأنا لا أعرف لي وجهة ، أعدو وأعدو بلا
ترقف ، فهل كان يتأثرني أحد ؟ وهل صاح بي أحد ؟
لا علم لي بشئ . . . لم أكن أرى قبالي إلا كطيفها ملقى
على الأرض ، والدم يتفجر من صدرها ، وعيناها مفتوحتان
تنظران إلى في دهشة وعجب ، تسألاني : لم لم أتم الشطر
الآخر مما انفقنا عليه ؟

وكان السكون حولي في صمت مرّوع ، فليس في مسمعي
إلا أنينها المتقطع الضعيف . . . يا لله ! ساعات وساعات قضيتها
وأنا أعدو كالوحش الثفور المشخن بالجراح ، يطلب له مخبأ
يقيه عين الصائد !

واستلقيت على الأرض بغتة ، فاقد الوعي . ولما فتحت
عيني وجدت نفسي في بقعة قاحلة ، أشبه بالصحراء ، يخيم
فيها السكون ، وتطبق عليها غياهب السواد . . . جلست
أفكر طويلا ، ثم انفجرت أبكي وأشق ، ثم أصرخ من
صميم قلبي أطلب من الناس أن يقبضوا على يسوموني سوء
العذاب .

ولما انتهت تلك الأزيمة ، قت أجُرُّ رجلى والياسُ يَعَشَّشُ
فى نفسى ، وتأنيب الضمير يمزق قلبى شرَّ ممزق سرت
على غير هدى ، وقد أزمعتُ أن أقدمَ نفسى لرجال الشرِّطة ،
وأخلصَ ضميرى من آلامه الشَّدَاد .

وما زلت أسير ، والعمران مستخف عنى ، لا أرى له من
أثر ، والصحراء تنبسط أمامى لا أعرفُ لها نهاية ولاج
ضوءُ الفجرِ فى عرضِ الأفق ، فريئتُ طويلاً أُجِيل فيه
النَّسْطَر ، وصَحَّتِ الشمسُ تسطع بنورها القوى ، فسَرَّحتُ
بصرى فيما حولى ، فلم أجد إلا زبالاً ميسوطة وحجارةً مبعثرة ،
وتلالاً قائمةً هنا وهناك وبدأتُ أتعرفُ أين يقع مكانى
من الوادى ، فَعَلَيْتُهُ على وجه التقريب .

وتصوَّرتُ لى فى تلك اللحظة أنى أسمع صوتها ، فقَفَزْتُ
أطلب الخلاص ، وظَلَلْتُ أجرى ، ولا أجسُرُ على الالتفات
خلفى ، حتى جَعَيْتُ ، وانقطعت أنفاسى ، فارتميتُ على الأرض
مختنقاً خائرَ القُوى

وترامت الأيام ، وأنا أهِيمُ فى شِغَاب هذه البقاع المهجورة ،
مسلوبَ الفكر ، موزَّع الإرادة ، لا أدرى ماذا أفعل ؟ فتارة

أجدني مدفوعاً بعامل قوَى ، لا أقبل لي بدفعه ، لأقضي لي
حياتي بأية وسيلة ، وطوراً يمتلكني جُبن غريب ، فأتهرب
بالخوف من كل شيء : من أشخاص أتوهمهم مُقْبِلين
يريدون القبض عليّ ، من التلال التي كانت تحيط بي كأنهم اسجون
مُطْبِقة ضيقة ، من الصخور التي كنت أختلها آلات قتل
والهالك مختلفة الأشكال تتجههم لي . . . كنت أخاف من كل
شيء ، حتى من نفسي ، فكان يرتسم في خاطري أن شيئاً
يتصّبس جُبنائي ، وسينسلخ عني ، في يده غدار في المُنْقوذة ،
يصوبها إلى قلبي .

وعندما يُخيم الليل ، تراءى لي « صفاء » خُمَيْليبيتي ، وهي
تنظرُ إلى في دهشة وحيرة ، بينيها الشاختين ، تسألني :
لماذا لم أتمّ الشطرَ الآخرَ بما اتفقنا عليه ؟ فأقضي ليلتي
مُسَبِّداً ، لا يستقرُّ بي قرار ، أفتشُّ عن مجبأ يُنجيني من
نظراتها . . ومن أين ذلك لي ، وعيونها دائماً أمامي ، مُلاحِظُني
من حينما ألتفت ؟

واستأنفتُ سيري ثانياً .. وتخيرتُ لوجهتي ناحية الشمال ،
ناحية الشمال دائماً !

وكنْتُ أَقَاتُ بِالْأَمْسِ وَالْبُذُورَ ، وَأُرْتَوِي مِنَ الْمَنَاقِعِ الَّتِي
كَانَ يَتَجَمَّعُ فِيهَا مَاءُ الْمَلِكِ . وَإِذَا لَحَتَ قَرْيَةً مِنْ بَعِيدٍ .
ابْتَعَدْتُ عَنْهَا ، حَتَّى تَمُوتَ عَنْ عَيْنِي !
وَكَثُرَتْ الْيَامُ . . .

وَصَادَنِي فِي الطَّرِيقِ بِرَكْمَةِ مَاءٍ شَدِيدَةٍ فِيهَا وَجْهِي ،
فَكَدْتُ أَصْعَقُ مِنْ هَوْلٍ مَا وَضَحَ لِي : وَجْهُ رَجُلٍ هَرِيمٍ
تَسْعَرُجُ فِيهِ التَّجَاعِيدُ ، لَهُ لِيَّةٌ كَثِيشَةٌ ، وَرَأْسٌ قَدْ فُزِرَ
شَعْرُهُ وَاسْتَطَالَ وَوَجْهُهُ أَسْبَبَ . . . لَقَدْ اسْتَحَالَ وَجْهُ
يُوسُفَ الصَّافِي ، سَحْنَةً مِنْ رَسْمِ الدَّرَاوِشِ ، مِنْ نَقَرٍ عَنْهُمْ
فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ . . . وَمَكَثْتُ وَقْتًا أَحَدَقْتُ فِي وَجْهِهِ الْمُتَخَايَلِ
عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ ، ثُمَّ انْعَلَقْتُ أَضْمَكُ طَوِيلًا !

وَبَدَأْتُ أَتَرَدَّدُ عَلَى بَعْضِ الْقُرَى ، أَطْلُبُ الْكَفَّافَ مِنَ
الرِّزْقِ ، فَلَا يَكَادُ النَّاسُ يَتَجَمَّعُونَ حَوْلِي ، حَتَّى تَبْلُغَ بِي ثَوْرَةُ
النَّفْسِ إِلَى الشَّتْمِ وَالسَّبَابِ ، وَأَفِرُّ ضَارِبًا فِي فِجَاجِ الْأَرْضِ . . .
وَقَدْ أَسْأَلُ شَخْصًا أَنْ يُنْذِرَ لِي قَلِيلًا مِنَ الطَّعَامِ ، فَإِذَا مَا أَتَى
بِهِ نَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ شَرِّ رَأْيٍ ، وَلَوِيتُ عَنْهُ وَجْهِي ، وَتَرَكْتُهُ
يَقْلُبُ فِي نَظَرٍ حَائِرٍ ، وَهُوَ يَغْمِغِمُ فِي تَحَسُّرٍ :

مَجْنُون . . . مَجْنُون . . .

فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذِهِ الْمَعَامِلَةِ الشَّاذَّةِ الَّتِي لَقِيتُ النَّاسَ بِهَا ،
كَانُوا يَغْمِرُونَنِي بِإِشْفَاقِهِمْ وَإِحْسَاتِهِمْ ، إِذْ حَسِبُونِي وَلِيَامِنْ
أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ، أَوْ مَجْنُونًا تَاعَسًا يَجِبُ لَهُ الرَّثَاءُ !

وَكُنْتُ أَتَخَيَّرُ الْأَمَكْنَةَ الْمُنْعَزِلَةَ ، لِأَقْضَى وَقْتًا أَتَأَمَّلُ
وَأَفْكَرُ . . . وَلَمْ يَعْذُ لِلرُّغْبِ مَكَانٌ مِنْ قَلْبِي ، وَأَخَذْتُ أَنْظُرَ
إِلَى جَرِيمَةِ الْقَتْلِ الَّتِي ارْتَكَبْتُهَا نَظْرَةً هَادِئَةً . وَأَصْبَحْتُ
تَتَرَاءَى لِي ، صَفَاءً ، وَهِيَ مُسْبِلَةٌ الْأَجْفَانِ ، يَحْمِلُ وَجْهَهَا
طَابَعُ الشُّطْفِ وَالْوَدَاعَةِ !

وَتَمَكَّنْتُ مِنْ إِثَارِ الْوَحْدَةِ ، وَالِاسْتِغْرَاقِ فِي التَّأَمُّلِ . أَلَسْنَا
كُلُّنَا مُسِيرِينَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، كُلُّ شَيْءٍ يَسِيرُ وَفَقْدَ الْأَقْدَارِ ، فَهِيَ
الَّتِي تَحْكُمُ إِرَادَتَنَا . . . مَا نَحْنُ إِلَّا يَدُهَا الَّتِي تَضْرِبُ ، أَوْ عَلَى
الْأَصْحِ صَدْرُهَا الَّذِي يَتَلَقَّى الْضَرْبَاتِ !

وَكُنْتُ دَائِمًا أَسِيرُ نَحْوَ الشَّمَالِ . وَلَمَّا اقْتَرَبْتُ مِنْ بَلَدَةٍ
بَعْتَابَ ، تَذَكَّرْتُ أَنَّ لَنَا قَصْرًا مَجْهُولًا فِي تِلْكَ الْجِهَةِ ، فَامْتَلَأَتْ
نَفْسِي غِبْطَةً ، وَمَا زِلْتُ أَقْتَنِسُ عَنْهُ جَاهِدًا ، حَتَّى تَعْرِفْتُ
عَلَيْهِ بَعْدَ لَأْنٍ ، وَاتَّخَذْتُ عَلَى الْفَوْرِ طَرِيقِي إِلَيْهِ .

وَهَإِذَا كَمَا تَرَوْنَنِي فِيهِ !

فقلت « مس إيفانس ، وعينها رانية » إلى يوسف ، :
 وهل بقيت فيه حتى اليوم لم تبرّحه ؟
 — لم أبرّحه قط ، ولن أبرّحه ما حييت ، لقد أقسمتُ
 غلى ذلك ، وسأبرّ بقسمي ...

— وكيف كانت حياتك في هذا المكان المنعزل ؟
 — عشتُ هذه الأعوام الخمسة والعشرين قرير العين
 بوحدي ، خالياً بنفسى ، أناجى شجوني ، وأأكل الطبيعة حولى .
 فإذا نالني همٌّ أو أصابني ضيق ، لجأت إلى صكّواتي متقرّباً إلى
 ربّي ، فسرّعان ما يُعَاوِذني سَفَاتِي المنشودا
 فقلت :

« هذا حسن . ولكنه على أيّة حالٍ نفى مؤبداً ،

فأجاب :

« أتعدّ هذا نفياً ؟ ... ألا إني أعدّه الخلاص من حياة

زائفة ! »

فقلت « مس إيفانس ، في نشووة :

« أنت الرجل الوحيد الذي فهم سرّ هذا الوجود ... »

وسكتنا جميعاً ، وأظاننا سيكون شاعداً . . .

عشنا مع « يوسف الصافي » أياماً أخرَ عيشةً راضيةً هائلةً خالصة من المفاجآت .

كانت صحة « يوسف » تتحسن يوماً بعد يوم ، وأصبح هادئ الطبع ، دَمِثَ الخلق . وقد تبادلتُ علاقتي به ، فترسخت بيني وبينه الثقة وثيقة الثمرا ، وطابت لي مشورته ، وساغ لي حديثه . واستطلعت في هذه الأيام التالية أن أنعم بملك الحياة الفطرية الساذجة التي يحياها .

أما علاقة « يوسف » بـ « مس إيفانس » فكانت علاقة احترام وودٍّ مشبعةً بعاطفةٍ دافئةٍ تسيم عنها في بعض الأحيان ومهنات عينية أو خلجات وجهه . . . ولم يعد يسميها « صفاء » كما كان يفعل وهو محموم ، بل كان يتحاشى دائماً أن يسبق لسانه بذكر هذا الاسم أمامنا .

فأما « مس إيفانس » فقد لحقها تغيرٌ جديد ، فلزمت الصمت ، إلا فيما تقضى به الضرورة الحافزة . وكانت تسمع في شغف شديد لما يصف به « يوسف الصافي » منهج حياته

في هذا المكان ، وكيف قضى الأعوام الطَّوَالِ حيساً بين هذه
الجدران الشائعة ، أو بالأحرى طليقاً بين أحضان الطبيعة . فإذا
ما انتهى من حديثه ، اتبذت ركناً بعيداً ، وجلست تحلسم ،
وقد وَضَحَ على وجهها إشراقٌ عجيب !

وبينا كنت ذاتَ يومَ جالساً إلى الشيخ عاد ، عند النبع ،
تبادل بعض الكلمات التافهة ، وعقولنا شاردةٌ في ميادين شتى ،
إذ أقبلت علينا « مس إيفانس » فرفعنا رأينا إليها ، فإذا هي
تقول في احتياج ، ونظراتها تنطق بعزمٍ وطيد :

« أصبحت لا أطيق المُكثَ هنا أكثرَ مما مكثت ! »

فقلت على الفور :

« ماذا ؟ هل أزمعت السفر ! »

فقلت في لهجتها السابقة :

« إن مهمتنا قد انتهت . . . ألم نُكشِفِ القصرَ ، ونعرفِ
سِرَّهُ الخفيَّ ؟ فلايَّ غرضٍ نُبقي بعد ؟ إن هذه الأسوارَ العالية
ترهق أعصابي بمنظرِها الموحش . . . أشعرُ بِضيقٍ
شديد . . . »

وظهر « يوسف الصافي » يتوكأ على عصاه ، ودنا منا وعلى

فه ابتسامة رقيقة ، وقال :

« ماذا ؟ أراكم تتجادلون . . . ففيمَ هذا ؟ »
فقلت على الأثر :

« لقد اعتزمت » مس إيفانس ، الرحيل . . . »
فواجهها د يوسف ، بنظرة استفسار ودهش ، وقال :
« لاشك أنكِ تمرِّحين يا سيدتى ! »
فخَفَضْتُ من بصرها ، وقالت في صوتٍ خافت :
« أكنتَ تظنُّ ، يا صديقى ، أننا سنقيمُ هنا إلى الأبد ؟ »
فقال د يوسف :

« كلا . . . أنا أعلم بحاجتكم إلى حياة الخضر ، ولكنى لم
يُحسِ عليكم من الأيام هنا إلا النَّزْر اليسير . . . لا ريب أن هذا
المكانَ العابسَ قد بدأ يضايقكم ! »
فهمتُ « مس إيفانس » أن تتكلم ، ولكنها عادت فأطبقتُ
شفتيها ، وأسبلت جفنيها . . . »
وأطرق « الشيخ عاد ، وراح يخطُّ بعصاهُ على الأرض بعضَ
الرسوم الساذجة ، وقال لـ د يوسف :
« لقد بدأنا ، يا صديقى ، نستشعر ثقُل ضيافتنا عليك ! »
فصاح د يوسف ، وعيناه تلعبان :

« أيجوز لك أن تنفوه بذلك أُمّامى يا شيخ عاد ؟ »

فقال الشيخ مبتسماً :

« لو كان الأمر مقصوراً علينا ، نحن الشرقيين ، لما وجدنا
 يأساً في إطالة أمد الضيافة . ولكن هذه السيدة إنها
 لا تستطيع بعقليتها الغريبة أن تفهم أسلوب الضيافة كما
 نفهمه نحن . . . »

فالتفت « يوسف » إلى « مس إيفانس » وقال لها في حرارة :
 « وإذا طالبت منك في رجاء واستعطاف أن تطيلي أمد
 البقاء معي ، فهل ترفضين ؟ »

فصمت « مس إيفانس » وقتاً ، ثم هيئتمت وعينها تسبح
 فيما أمامها :

« وددت لو استطعت ولكن . . . »

ثم عادت إلى صمتها القلق .

وشاركناها جميعاً في الصمت ، فلم تنفرج شفاهاً عن حرف .
 وكان « الشيخ عاد » لا يزال يخطّ على الأرض رسوم الساذجة .
 وبعد حين ، رفع رأسه ، وقال لـ « يوسف » :
 « ما قولك ، يا سيد يوسف ، في أنني جائع ؟ »

— ١٥٨ —

ثم نظر إلى «مس إيفانس» وقال :
 «وأنت ، يا سيدتي ، ألا توافقيني على هذا القول ؟»
 فابتسمت ابتسامة خفيفة ، وقالت :
 «إذا حضر شيء من الطعام ، فلن أتاخرَ عن مشاركتكم
 فيه !»
 فاستبان على وجه «يوسف» إشراقة عابرة . وقال لها :
 «إذا هيّا . . . لقد أعددتُ لكم اليومَ طعاماً صنَّعَ على
 نحوي جديد !»

• • •

وأخيراً آن يوم الرحيل . . .
 فهُضْنَا من فراشنا مبكِّرين ، وحرَّضْنَا الأمتعة ، وتزوَدْنَا بما
 يكفينا من المَسُونَةِ . . .
 ثم قنَّا إلى قبر «مجاص» ، فقرَأْنَا الفاتحة ، ونثرْنَا الزَّهْرَ !
 ورافقْنَا «يوسف الصافي» ، فاخترَقْنَا سرايب القصر ودروبه ،
 والصمت الرازح يخيِّط بنا ، حتى وصلْنَا إلى باب الخروج ،
 حيث الشَّعْرَةُ التي دَخَلْنَا منها .
 وهنا رَغَبْنَا إلى «يوسف» ، في أن يرجع ، فتمتْ مَرايِمُ

الوداع في عبارات رقيقة . وحببت كيف جاء توديع مس
المفانس ، لسا كن القصر فأتراً على خير ما كنت أنتظر !
واقترقنا ..

وسرنا في الطريق الذي جئنا منه ، وكنا نلتفت خائفاً
بين فترة وأخرى ، فتلح « يوسف الصافي » واقفاً أمام مدخل
القصر يراقبنا ويلوح لنا بيده . نخيل إلينا — ونحن نراه في موقفه
هذا ، وهو بملابسه وهيئته الفطرية وسطاً ذلك المكان
السحري — أنه رجل من أهل الكهف خرج يستجلى العالم
بعد نوم مائة من الأعوام ...

٥

وسرنا . . . وسرنا . . .

والصمت دائماً يلازمنا ، ثم بدأت و الشيخ عاد ، تبادل
 بعض الكلمات ، فإذا بجديتنا تافه سخيف . أما مس إيقانس
 فاستأثر بها الوجوم المكفهر ، لا تبدونا بحديث ، ولا تشارك
 معنا في نقاش . . . وأقلقتني حالتها ، وأسرت رأيت لرفيق ،
 فلم يُعِر كلامي أى اهتمام .

وواصلنا سَيرنا بضع ساعات ، ثم اخترنا مكاناً نستَجِمُ
 فيه . . . ورأيت مس إيقانس ، تخرج من صمتها ، فقالت
 وعيونها تلتمع بشعاع حائر مضطرب :

« ما أتفه الحياة يقضيها الإنسان في عزلة نائية ! لا أدري
 كيف تحمل أعصاب المرء مثل هذا السجن القاسى ؟ ،
 خدقتُ في وجهها متعجباً ، ولم أنطق . . .

أما الشيخ فراح يدايع سُبحته ، ويتفحص حباتها .

— ١٦١ —

ثم قال :

« إن الأمور نسبية في هذا الوجود . . . فإعتبره أحداً
نافهاً يعتبره الآخرُ بجداً من الأبحاد ، وآيةً في كتابِ
البطولة . . . »

فقلت :

« والحقيقة ؟ . . . أين هي إذا ؟ »

فقال :

« صدقيني ، ياسيدتي . . . إن الحقيقة ضائعةٌ في هذا
الوجود ! »

فقلتُ على الأثر :

« اسمح لي ، يا صديقي ، أن أصرحك بأن هذه الأقوال من
مغالطات الفلسفة . . . » الحقيقة ، هي أن يحيا الإنسانُ
في هذه الدنيا وفق قوانينها الطبيعية . . . فهل العزلة ، والتنفارُ
من الناس ، وإيثارُ سجنِ ناء عن المجتمع ، يصح أن يعدَّ
أمن الأمور الطبيعية ؟ »

فأسرعت « مس إيفانس » تقولُ في حماسة :

« إنني أسمى مثل هذه العزلة مرضاً اجتماعياً . . . لكل امرئ »

— ١٦٢ —

في الحياة رسالة يجب أن يؤديها لبني جنسه ، فإذا نكص على
عقبينه ، عد ذلك فراراً من الميدان ... ،
فقلت في حماسة لا تقبل عن حماسها :
« هذا الكلام هو عين العقل ! »

فابتسم الشيخ عاد ، ابتسامته الهادئة ، وأخذ سُبُجته ،
وطبقَ يَشْمُها . ثم قال :

« ليس لي اعتراض على هذا القول في مجمله . ولكن
لا تنسوا أن لكل امرئ حقاً في أن يفسر قوانين الطبيعة على
حسب منطقهِ ومثلاً بسات حياته ... »

ولبئنا يومين كاملين في معاطف الطريق ... ولاحظت
أن « مس إيفانس » ، ما تستيقظ من نومها في مطلع الصبح ،
حتى تخرج من الخيمة — أو ما اصطلاحنا على تسميته خيمة —
وتنقضي وقتاً غير قصير تطيل النظر إلى الجهة التي يقوم فيها
تصحرنا المسحور ... فأراقبها خلسة وأنا متعجب من أمرها .
بيد أني لم أراجعها في هذا الأمر بتصريح أو تلميح .

وقت مرة مع « الشيخ عاد » ، نبحت عن وقود الإنضاج
غداً ، وما كان أشد دهشتنا إذ رأينا أربع بغال تنسرح

— ١٦٣ —

في الجبل ، تفتت بأعشابه اليابسة ، فاقتربنا منها ولم نجد صعوبة في طلبها واقتيادها .

وصرختُ مشيراً إلى بغلتين منها :

« إنهما البغلان اللتان تركناهما أثناء قدومنا ، ما في ذلك

ريب . . . »

فأخذ الشيخ عاد ، يرتب ظهريهما ويتفحصهما ، ثم قال :

يجوز !

— المشابهة بينهما وبين بغلتينا واضحة ، لا تحتاج إلى دليل .

انظر إليهما ، أليستا محجلتين ؟

— صحيح ، هما محجلتان . . . ولكن ليس هذا دليلاً

قاطعاً . . . لو كان المرحوم ، مجاعص ، بيننا ، لأنقذنا من هذه

الحيرة بالخبر اليقين !

. . . واخترنا البغلتين ، لحاجتنا إليهما في الركوب ، إذ كان

نشاطنا في السير مترجلين قد أدركه الوهن والفتور .

وأشعلنا النار ، وبدأنا — أنا والشيخ — نهبي طعامنا . .

وبقينا صامتين لحظة . ثم قلت له الشيخ عاد :

أتظن أن شخصين قد يتشابهان مشابهة تامة ، حتى ليختلط

على العين الفاحصة أمرهما ، فلا تستطيع التفريق بينهما ؟

— مؤكّد !

— إذا اختلطَ على العين ذلك ، فهل يختلط على القلب
أيضاً ؟

— أفصح : عمّا تريد ...

— لنفرض أنك أحببت فتاة ، ثم فرقت بينكما فجاءت
الحياة ، وبعد انصرام عشرة أعوام مثلاً لقيت تلك فتاة
أخرى تشابه الأولى مشابهة تامة ، فهل تشعر لها بمثل الحب
الذي كنت تشعر به للأولى ؟

فأطرق الشيخ قليلاً ، ثم قال :

من العسير أن نضع لذلك قانوناً عاماً لا يتخلّف ... فلكل
امرئ مزاج خاص ، وشعور مستقل ، يختلف قليلاً أو كثيراً
عن مزاج غيره وشعوره ...

— أو كد لك أن الناس كلهم مزاج واحد وشعور واحد .
إن طبيعتنا البشرية تسير وفق قانون واحد .

— وما هو هذا القانون ؟

— هو أن القلب لا يخطئ خطأ العين ! فعواطفك لا

— ١٦٥ —

تتنجذب إلى فتاةٍ لمجرد أنها تشابه من أحببتُها في سالفِ حياتك !
ورأينا دمس إيقانس ، آتيةً إلينا ، فأنهمكنا في إعداد الطعام
وقد غيّرنا مجرى الحديث . . .

وفي اليوم الثالث صحوْتُ من نعاسي ، واجتمعت به الشيخ
نعاد ، لتناول الفطور ، فلم أجده دمس إيقانس ، فسألته عنها
فلم يجبني . . . بل اقتصر على ابتسامةٍ هادئةٍ مديدة ، فيها معنى
الاستسلام والاستخفافِ بكلِّ شيء . فلم أفهم ما يعنيه ،
فسألته :

« أتناولتُ فطورها منفردة ؟ »

فناولني بضعَ تينّاتٍ حافّةٍ ، وقال :

« ألم تكنِ تتوقّع لها هذا الأمر ؟ »

— أيّ أمرٍ تعني ؟

— لقد ذهبتُ . . .

— ذهبتُ . . . إلى أين ؟

فجذبني من يدي ، وخطونا بضعَ خطوات ، ثم وقف

— ١٦٦ —

وهو ينظر في اتجاه الناحية القائم فيها القصر ، وأشار إليها
وهو يقول :

« هناك ... ألم تفهم ؟ »

ووقفتُ جَزِعاً ، وقد فطنتُ إلى ما يخفيه .

ثم رجعنا إلى مكاننا ، وتابعنا أكلنا صامتين !

أحدث مؤلفات محمود نيمور

أبو الهول يطير

مشاهدات وخواطر يسجلها سائح في العالم الجديد

سلوى في مهب الريح

قصة تبسط حياة فتاة لعبت بها ضروب من تصارييف القدر

عطر ودخان

فصول طريفة في نقد الحياة والمجتمع

(طبعة ثانية جديدة مزينة)

مكتوب على الجبين

(طبعة ثانية جديدة)

فرعون الصغير

(طبعة ثانية جديدة)

كليوباتره فى خان الخليلي

قصة الصراع الدائم بين عالم الحقيقة وعالم المثال

حواء الخالدة

قصة المرأة منذ الأزل وقصتها إلى الأبد

شفاه غليظة

مجموعة من أقاصيص مصرية

بنت الشيطان

قصة الخير والشر فى طبيعة البشر

فن القصص

فصول جامعة لدقائق الفن القصصى

(طبعة ثانية مزيّدة)

